

الفصل الثاني

دور الوزراء في الحياة الاقتصادية

- الوزراء والسياسة الجبائية
- الزراعة
- أسباب التدهور الزراعي في عهد نفوذ الوزراء الحفصيين
- الحرف والصناعات
- التجارة

الوزراء والسياسة الجبائية

إن قوة الدولة السياسية لا تكون إلا بقوة اقتصادها، وعندما تتقهقر الدول وتقل الخيرات والموارد فتقل أموال الدولة، وتضعف مدا خيل الرعايا وتقل الجباية المفروضة عليهم مما يترتب عنه ضعف الطاقة الشرائية وفتور الحركة العمرانية^(١) فنجد أن السلطان عندما تضيق به الظروف يضطر إلى فرض مزيد من الضرائب ويساعده في ذلك وزرائه الذين يقومون بجمعها، وهنا نجد أنه في نهاية حكم السلطان المستنصر لجأ إلى فرض الكثير من الضرائب والإدارات التي ألغاهها وولى عهد السلطان الواثق حيث أمر بإلغاء وإحراق دفاترها وأزماتها^(٢) وهنا نلاحظ أنه في عهد قوة السلطان وسيطرته على مجريات أمور الدولة ولكن عندما يضعف السلطان ويسيطر عليه وزرائه تتدهور أمور الدولة وتقل الجباية فيلجأ الوزراء المسيطرون على مقاليد الحكم بفرض ضرائب جديدة ومكوس، ويقول ابن خلدون في ذلك إذا احتاجت الدولة للمزيد من المال تفرض المكوس والضرائب^(٣) وكان الوزير أبو عثمان سعيد بن يوسف بن الحسين قد كون ثروة كبيرة في عهد السلطان المستنصر من وراء تلك الجبايات الضخمة المفروضة على الرعايا وكان هدف الوزراء الأساسي جمع الأموال^(٤).

(١) عبد العزيز الدولاتلي: مدينة تونس، ص ٦٦ - ٦٧، رشا سالم، الوزارة، ص ٢٩٣.

(٢) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٦.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٢٥٣.

(٤) ابن القنفذ الفارسية، ص ١٣٥، الزكشي، المصدر السابق، ص ٤١، ابن خلدون: العبر، مج ٦،

ج ١٢، ص ٦٧٨.

وظهرت تلك الثروة الضخمة عندما صدرت أمواله في عهد السلطان الوثائق على أيدي ابن الغامقي حيث بلغت (ستمائة ألف دينار) غير الأثاث والمتاع الآخر، وكانت هذه الأموال مدفونة بداره وعثر عليها، غير ما استولى عليه مواليه بعد القبض عليه^(١).

وكذلك فعل أيضًا الوزير ابن الغافقي المعروف بابن الجبار حيث كان همه الرئيسي جمع الأموال بشتى الطرق وبالع في أمور الجباية بعد أن تحكم في السلطان وسيطر على مقاليد الحكم^(٢) فكان كثير الإعجاب والفخر بنفسه، فكان شديد الإسراف على فخامته وملابسه واقتناء الزخائر^(٣) واستخدام أسلوب التعسف هو ورجاله من أجل جمع الجباية من الرعية^(٤).

حيث عين أحد العلوج في وزارة الأشغال المالية يسمى مدافع^(٥) وكذلك كلف أخاه إدريس أبا على بأشغال بيجاية وأموالها فأساء هو الآخر السيطرة وأخذ الأموال عنوة وبشدة، وعمل على اقتناء الأموال، مما مهد ذلك إلى انفجار الأوضاع في بجاية والدولة الحفصية^(٦) وإتلاف أموال

(١) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٤، الزركشي: المصدر السابق، ص، ولم يذكر كمية الأموال بالضبط كما ذكرها ابن خلدون: ابن القنفذ.

(٢) الدولاتي: مدينة تونس ص ٩٢.

(٣) ابن القنفذ: الفارسية ص ١٣٥، الزركشي: المصدر السابق، ص ٤١، الدولاتي: مدينة تونس ص ٦٢، المطوي: السلطنة، ص ٢٣٢.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية ص ١٣٥، ابن الشباع: المصدر السابق، ص ٧٥، المطوي: السلطنة ص ٢٣٢.

(٥) ابن خلدون: العبر، ص ٦، ج ١٢، ص ٦٧٩، القنفذ، الفارسية، ص ١٣٥.

(٦) المطوي: السلطنة ص ٢٣٣.

الدولة^(١) وهكذا كان للوزير رجاله وخاصته في جمع الجباية والأموال من الدولة وذلك لغياب السلطان وتحكم الوزراء فيهم، وكان السلطان الواثق لا يحرك ساكناً والأوضاع من حوله تشتعل حتى انتهت بتنزله عن العرش لعمه أبي إسحاق.

وعلى الرغم من استفادة عناصر أخرى من الجباية ولكنها كانت في النهاية تصب لفائدة السلطة المركزية التي تتركز في أيدي سلطان قوى أو وزراء مستبدين على السلطان متحكمين في أمور الدولة^(٢) وكان من المستفيدين من الجباية الأعيان المحليين بالبادية من كبار شيوخ البدو ورؤسائهم أصحاب الزوايا الذين يتولون كراء الأرض أو الحصول على نسبة معينة من المحصول وذلك مقابل حماية الأراضي من التعدي بفضل قوتهم وسلطتهم العسكرية وهم من فرسان البدو، أو سلطة معفية من إتباع الزوايا، ولعبت القبيلة الموالية للسلطة المركزية دورها أيضاً في جمع الضرائب^(٣) واستفاد المالكون العقاريون بالمدينة الذين يكثرون الأرض لصغار المزارعين مقابل مبلغ مالى عينى أو نقدي^(٤) فإن محصلة جمع الضرائب تذهب إلى المخزن السلطاني الحفصي بقيادة وزير المالية أو كبير الوزراء المستبد ومع جيشه القوى القائم بأمر الجباية على هيئة حملات موسمية يستخدمون فيها الرعب وبث الخوف في قلوب المزارعين

(١) ابن القنفذ: الفارسية ص ١٣٥ المطوي: السلطنة ٢٣٣.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج ١، ص ٦، ص ١٥١، البرزلي، جامع مسائل الأحكام، ج.

(٣) الونشريسي: المعيار، ج ٦، ص ١٥١، البرزلي: جامع مسائل الأحكام، ج ١، ص.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٣٠.

والفلاحين^(١).

كان ذلك على العكس من السلطان القوى صاحب السياسة الحكيمة أبى زكريا الحفصى حيث اتبع نظام جبائى عادل حيث ضرب على أيدي وزرائه ومنعهم من الإساءة إلى الرعية بما أنعش الاقتصاد الحفصى وأعان ذلك على الازدهار وارتفاع مستوى المعيشة بين الأهالى^(٢) حيث حذر أحد وزرائه من الإسراف وهدده بالقتل وحثه على جباية الأموال فى الاعتدال من الرعية^(٣) وترك سبعة عشر بيتاً من المال^(٤).

وكان وزير الأشغال من أهم مناصب الدولة الحفصية ونظمها الإدارى، وكان ينفرد به وزير من الموحدين فكلف بولاية العمال وعزلهم ومحاسبتهم على الجباية التى كان لا يدفعها الشعب إلا بالقهر العسكرى، حيث يتولى الجندى جمع الجباية من الجهات بالمملكة الحفصية^(٥) ونلاحظ هنا انه فى حالة قوة السلطان وسيطرته على وزرائه تمشى الأمور على أفضل وجه على العكس من الوزراء المستبدين على السلاطين الضعفاء فتتأزم الأمور، وتحدث مشكلات وبعثوا جامعى الضرائب فساداً وعنفاً مع الرعية.

وكان هناك الأرياف المغربية عامة والإفريقية خاصة عانت من النهب من

(١) الونشريسي: المعيار، ج١، ص١٤٢، ج٦، ص١٥٠، ١٤٩، ١٣٩، محمد حسن، المدينة والبادية، ج١، ص٥٣٠.

(٢) العامرى: المرجع السابق، ص١٨

(٣) ابن الشماخ: المصدر السابق، ص٥٦، العامرى: المصدر السابق، ص١٨

(٤) ابن الشماخ: المصدر السابق، ص٥٧

(٥) العامرى: المرجع السابق، ص٢٠

السلطة وشيوخ البدو^(١) وكانت تسمى مغارم البادية وجبايتها بوزارة العمود وهى خاصة بالجباية من الأرياف والبدو واستمرت هذه الضريبة فى عهد السلاطين الضعاف والوزراء الأقوياء^(٢) حيث فى عهدهم تعود الزارعون والحراثون على دفع شتى هذه الضرائب من جبايا والمغارم والخطايا التى فرضها عليهم الوزراء المستبدين ورجاهم من شيوخ القبائل^(٣) بالإضافة إلى زكاة الماشية ثم فرضت إتاوة أخرى سميت فى تونس خراج الجبال أطلقت على الأراضى الرعوية، وضريبة تؤخذ على الإنتاج الزراعى من حبوب وزيتون وتمور تعرف باسم القطيع، وقد وجدت منذ القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى حتى سنة ٧٤٩ هـ حيث أزالها السلطان المرىنى أبو الحسن وشدد فى عقوبة القائمين عليها، وأسقط أموالا جمّة^(٤).

وكان للوزير الفازازى دوره فى عهد السلطان أبى حفص حيث قام بجباية الخراج من جميع الجهات التابعة للدولة الحفصية^(٥) كما فرض المغارم على أهل توزر بسبب ثوراتهم ضد السلطة المركزية المتمثلة فى الوزير الفازازى وعامله على توزر محمد ابن يحيى من أبى بكر التينمللى فكبح جماحهم وكثر شوكتهم وشوكة زعيمهم أحمد بن يملول^(٦) وكذلك تحرك الوزير الأكبر بن اللحيانى فى

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٣٤

(٢) العامرى: المرجع السابق، ص ٢٠

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٣٤

(٤) ابن مرزوق: السند، ص ٢٨٦

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧٠٧

(٦) المصدر السابق نفسه والجزء والمجلد، ص ٧٠٢، ٧٠٧، راجع أحداث هذه الثورة فى الفصل الأول (ودور الوزير الفازازى فى القضاء على الثورات).

شهر جمادى سنة ٧٠٦ هـ بجيشه إلى جربه من أجل تخليصها من أيدي
النصارى فقاتلهم شهرين^(١).

وحاصر حصن القشتيل^(*) ولكن دون جدوى نظراً لمناعة القلعة وشدة
استحكاماتها وبسبب نفاذ الزاد والمؤن التى كانت مع جيشه وانقطاع
الإمدادات لهم، فقرر كبير الوزراء ورفع الحصار^(٢) ثم رحل عنها إلى قابس ثم
بلاد الجريد وانتهى إلى توزر ونزلها وأعانه على ذلك أحمد بن محمد ابن
بملول^(*)، فقام بجمع جباية بلاد الجريد وعاد على قابس ثم أمر عساكره
بالعودة إلى تونس^(٣) ثم رحل عن قابس إلى بعض جبالها بسبب سوء هوائها
بعد أن شفى من بعض الآلام التى ألمت به رحل إلى طرابلس^(٤) ثم انطلق
للحج مع الوفد المصرى المملوكى العائد من بلاد المغرب الأقصى وذلك
أواخر سنة ٨٠٧ هـ^(٥) وعندما يبلغ الاستبداد مداه نجد أن الوزير يمكن أن

(١) التجاني: الرحلة، ص ١٢٨

(♣) حصن القشتيل: حصن مربع الشكل وفي كل ركن منه برج اثنان منهما مستديران واثنان
مثمانان وبين كل برجين من هذه في وسط لحائط برج صغير مربع ويدور به فصل قصير

ويدور بجميع ذلك حفر واسعة راجع التجاني: الرحلة، ص ١٢٨

(٢) التجاني: الرحلة، ص ١٢٨، برنشفيك: المرجع السابق: ج ١، ص ١٥٥

* احمد بن محمد بن بملول:-

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧٣٠، الزركشى: المصدر السابق، ص ٥٦

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧٣١، الزركشى، المصدر السابق، ص ٥٧، التجاني:
الرحلة، ص ٤.

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧٣١، الزركشى، المصدر السابق، ص ٥٧، التجاني: الرحلة، ص ٥
برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٦-١٥٧ ويحضرنا هنا سؤال ماذا فعل الوزير الأكبر أبو

يتولى أكثر من منصب في حالة سيطرته على شتى أمور حدوده وهو الوزير المستبد القوى وصاحب النفوذ ابن أبي الحسين حيث جمع بين وظيفتي كاتب العلامة وصاحب الأشغال^(١) حيث تغلغل نفوذه في شتى أمور الدولة إلى أن توفي في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ - ١٢٧٦ م وتولى وزارة الأشغال الفقيه أحمد بن يحيى الأنصاري ثم المسمى سعيد وهو من أقارب ابن أبي الحسين^(٢) واشتدت سطوة عمال الجباية في عهد السلاطين الحفصيين الضعاف وانتشر سطوهم وتعددهم على أملاك الرعية حيث كان أكثرهم معروفين بالجور والظلم وأخذ أموال الناس بالقوة وبغير حق^(٣). وفي عهد السلطان الضعيف والوزير المستبد به، يهشم القاضي لأنه كان محاطاً بأعوان عديدين يضللون الحقيقة ويحصلون على الرشاوى ويمنعون الرعية من الدخول إليه حيث يستطيع عمال الجباية من ممارسة سطوتهم وظلمهم للناس^(٤).

للحيانى بالجباية بعد ما جمعها، هل أرسلها إلى السلطان أبو عصيدة أم لا، وهنا يمكننا القول بأنه قد خرج إلى الحج، وهذه الرحلة تتكلف الكثير من الأموال الباهظة بسبب طول السفر وما يصحبه من مصروفات على طول الطريق وعلى البلاد التي ينزل بها، مما يجعله أن يجمع هذه الجباية بالإضافة إلى أمواله وخرج بها قاصداً الحج بعد أن استأذن السلطان الضعيف الذي لا يستطيع أن يمنعه من ذلك وبالإضافة إلى ذلك أن كبير الوزراء لم يستمر في حصاره بحصن القشتيل بسبب نفاذ مؤنه وأقواته بالإضافة إلى انقطاع المدد من السلطان فهذا يعني أن كبير الوزراء جمع الجباية لنفسه وكذلك أرسل الجيش إلى العاصمة ولم يرسل معه أى جباية.

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٢٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٠

(٢) برنشفيك، المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٠، ١٠٣

(٣) البرزلي: جامع مسائل الأحكام، ج ٤، ص ٦٠

(٤) محمد حسن، المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٣٤، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦

ويشتد السلطان في محاسبة رجاله والضرب على أيدي جامعي الضرائب وذلك في بداية عهده، حيث يقوم بإلغاء الغرامات وإبطال بعض الضرائب من أجل استمالة عطف القبائل^(١) وذلك في عهد السلطان الواثق ولكنه لم يطل في ذلك حيث استبد عليه ابن الجبر وأطلق عنانه في جميع شئون البلاد لدرجة أنه عين أخاه إدريس على ولاية الأشغال ببجاية، فقام بجمع الأموال بالقوة والظلم على الرعية، واقتنى الكثير من الأموال^(٢) بل سعى إلى أكثر من ذلك حيث أصبح هو المتصرف الوحيد في الشئون الإدارية للدولة الحفصية وكلف أحد العلوج المعتنقين للإسلام بالإدارة المالية وجمع الضرائب وسماه مدافع، وذلك لعدم وجود أى خطر من جانبه لأن العلوج لم يكن لهم أى مطامح أو نفوذ في الدولة آنذاك^(٣) حيث جمع الأموال بالشدة والتعسف من أجل إرضاء الوزير المستبد الذى استغل مكانته الممتازة لاكتساب الأموال الطائلة عن طريق رجاله حيث كان يميل إلى البذخ والملاذات^(٤). وفسدت الحياة السياسية الاقتصادية على يديه^(٥) وأحياناً كانت تتحرك قواته وحملاته على البوادي والقرى والمدن من أجل استخلاص الجباية وذلك بدافع من الوزراء الحفصيين وكانت هذه الحملات تؤدي إلى حلول الدمار والخراب على المنطقة

(١) ابن خلدون، العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٦ - ٦٧٧، ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٦٠،

ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٣،

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٨ - ٦٧٩، الزركشى، المصدر السابق، ص ١٤٢

(٣) - ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٧ - ٦٧٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١،

ص ١٠٤

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٢، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٥.

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٢.

ونرى أن أحد الحملات التأديبية على قفصه قد ألفت كثيراً من الإنتاج قد يفوق النصف وهذا يؤدي خراب ذلك المحصول^(١) وكانت هذه الجيوش والحملات التأديبية تحتاج إلى أموال باهظة من أجل جمع الضرائب وبالتالي يزداد الوزراء الحفصيون في فرض الضرائب^(٢) بالإضافة إلى ذلك تزداد تعديات الحملات المتوالية لجمع الجباية، عندما يقومون بحملاتهم التأديبية على البلاد الرافضة لدفع الجباية مثل البلاد الغربية والوحدات النائية فيكثر الغضب والنهب ويعمد عامة الجند إلى سلب أموال الناس بالقوة واتخذوا من الزوايا محطات للاستراحة من أجل مواصلة التقدم والزحف نحو الضرائب والقبائل المانعة له^(٣).

ونجد أيضاً أن النظام الجبائي المنظم في أوقات قوة الدولة يصاب بالتخبط والاضطرابات والبلبل في أثناء فترات ضعف السلطان الحفصي وسيطرة الوزراء الحفصيين على نفوذ الدولة حيث انتشر الظلم والتعسف والغضب نتيجة لتعدد القوى الاجتماعية مطالبة بالجباية، حيث جباة الضرائب المعاونين لأمراء القرى الظالمين الذين استعملوا شتى أساليب التعذيب والسجن والتهديد والترغيب من أجل شئ واحد فقط هو الحصول على الجباية^(٤).

(١) الشماخي: السير، ج، ص، محمد حسن المدينة والبادية، ج ٢، ص ٥٣١.

(٢) رشا سالم: المصدر السابق، ص ٢٩٤.

(٣) البرزلي: جامع المسائل، ج ٣، ص ١٢٤، ج ٤، ص ٦٠، ص ١٣٩، ابن ناجي، معالم الإيبان، ج ٤، ص ٢١٠.

(٤) البرزلي: جامع المسائل، ج ٤، ص ٢٧١، لدرجة أن بعض المهاجرين من الأندلس إلى إفريقية في فترات نفوذ الوزراء الحفصيين تمنوا الرجوع إلى دار النصارى بسبب ما يجذونه من ظلم

وتنوعت الضرائب على المجتمع الإفريقي فكان هناك ضريبة القائد يدفعها أهل البادية عند دخولهم المدن حسب الكيفية^(١) وكذلك فرضت القبالة^(*) أو الزمة^(**) وشملت جميع الحرف والتجارات فكان المتقبل يتولى

وجور على الرغم من تحريم الفقهاء البقاء في أرض الكفر والفسوق راجع الوشريسي: المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطن النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، ت/ حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٦م / ١٤١٦هـ / ص ٤٦ - ٤٧.

(١) محمد حسن، المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٤ وكانت هذه الضريبة تدفع كالاتى الجيوب: درهمان / بالقفيز، الزيت: ٣ بيزا / للجرة - الغلال: ٥,٥ - ٥ دراهم / للقنطار - السمك نصف دينار / للقارب - الصوف: ٢,٢٥ بيزا للقنطار - الجلد المدبوغ: ٤ بيزا / للقنطار - الجلد الغير مدبوغ ٤ بيزا للقنطار - الحرير: ١,٢٥ بيزا / للقنطار أنواع أخرى من الحرير ١٥٪ / للقنطار - القطن ٢ بيزا / للقنطار

(*) والبيزا (Besante) يعادلها الدينار التونسي الذى يحتوى على ٨ دراهم جديدة أو ١٠ دراهم قديمة: راجع محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٤٠

(*) القبالات: بفتح القاف والباء عمروه والجمع قبالات، القبالة هى فى الأصل الضريبة التى تدفع إلى بيت المال وأطلق هذا اللفظ على الضرائب الزائدة التى يقضى بها الشرع، واستخدمت هذه الدلالة على الضرائب التى يؤديها بائعو السلع الرئيسية وأهل الحرب فى المغرب والأندلس راجع ابن عذاري: البيان، المغرب، ج ١، ص ١١٦، ابن حوقل: صورة الأرض، ص، الإدريسي نزهة المشتاق، ص ٧٠، الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٧٠، محمد عماره: المصطلحات الإسلامية، ص ٤٤٥، ابن القطان: نظم الجمان، ص ١٩٣، القادري بوتشيش: أثر الحروب فى المجال الضرائبى، مجلة المناهل، ع ٣٤، ع ٣٥، السنة التاسعة، ١٩٩٧م، ص ٨٧، الجنحاني: دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص ٩٩، عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادى، ص ١٦٧، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٩٨ - ٢٠٠.

(**) الزمة: ظهر هذا المصطلح لأول مرة فى عهد الحفصى وهى العشر الذى يدفعه التجار فى

التزام المال المفروض على الأسواق، فيسلم المبلغ المطلوب للسلطة المركزية التي قد تكون في أيدي أحد الوزراء الأقوياء المسيطرين على الدولة بشرط أن يأخذ من التجار أو الحرفيين مبالغ زهيدة من أجل تغطية ما سلمه ودفعه للدولة^(١).

ونلاحظ أن الأمور اشتدت ظلمه من نظام القبالة وخاصة في عهد السلاطين الضعاف واستبداد الوزراء لدرجة أن أحد النصاري قد تقبل فندق باب البحر بتونس بمبلغ قدره ١٢ ألف ديناراً^(٢) حتى جاء السلطان أبو فارس القوى المسيطر على وزرائه الذين ساعدوه في تنفيذ سياسته وأحكم القبضة على البلاد وإقامة العدل^(٣) وإلغاء بعض الجبايات غير شرعية^(٤) وحيث أمر وزير جبايته الفقيه أبا عبد الله محمد ابن قاسم ابن قليل^(٥) بهدم هذا الفندق بسبب بيعه للخمور وانتشار الفساد والفسق به، وأمر وزراءه ببناء زاوية ومدرسة لطلبة العلم^(٦) وترك كثيراً من الجباية للفقراء^(٧) ولكن يتغير نظام الجباية بوفاة سلطان

الديوان، واللازمة جمع لوازم التي كانت تدفعها القوافل القادمة أو الخارجة من بلاد السودان وأجداية في العهد الحفصي، راجع ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧١، Amari: diplom, op.cit.

(١) البرزلي: جامع المسائل، ج ٢، ص ١٠٥، ج ٣، ص ١٦٩.

(٢) عبد الله الترجمان: المصدر السابق، ص ١٨، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ١٧٥، ابن مرزوق: المسند، ص ٢٨٣.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٥.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٦، ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٥ - ١١٦.

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦، ١٢٠، ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ١١٤ -

١١٥، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٤٦ - ٥٦٠.

(٧) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

حفصى وتولى غيره، حيث نجد أنه في النصف الأول من القرن التاسع الهجرى حاول عمال السلطان والوزراء المستبدين الاستئثار بقبالة فندق الرماد بتونس وبلغ استبداد الوزراء لدرجة فرض الأسعار المرتفعة على المتفعين^(١) مما جعل السلطان يتنكر الوزراء عمال الجباية الذين تعاظمت ثروتهم من جمع الجباية والتعسف الشديد من جمعها، فيقوم بمحاسبتهم واستصفاء أموالهم ومصادرة ثرواتهم والتسكيل بهم والحد من نفوذهم وكسر شوكتهم، والقضاء على مساعديهم وأنصارهم، وأكبر على ذلك ما حدث لمحمد بن خلدون وزير الأشغال حيث قتله العامة في أثناء حركة ابن أبى عمارة سنة ٦٧٩هـ^(٢) وكذلك أبو العباس أحمد الليانى حيث قتل وصودرت أمواله^(٣).

ونتيجة لشدة فسق وفساد وتعسف الجباة وتغاليهم في فرض المغارم وقف الفقهاء موقفًا واضحًا اتجاههم ووصفهم لمستغرقى الذمة والفسق والظلم^(٤) وكذلك مشايخ قبائل الأعراب والقبائل أنفسهم تشددوا في فرض الإتاوات على العامة وأذاقوهم الويل في جمعها سواء كانت وأنفسهم أو مساعدة منهم للسلطة الجائرة، ووصفهم الفقهاء أيضًا مستغرقى الذمة وإن أموالهم حرام، وحذر الناس على عدم التعامل معهم بأى أنواع، وأصبحت نعه الشكل

(١) البرزلي: فتاوى، ج ٤، ص ٢١٨، محمد حسن: المدينة والبادية، ص ٥٤٦، للمزيد راجع

محمد حسن: المرجع السابق، ج ١، ص ٥٤٥

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٧

(٣) المصدر السابق، ص ٣٦

(٤) الونشريسي: المعيار، ج ٧، ص ٢٩٤ - ٢٩٥، البرزلي: جامع، ج ٤، ص ٢٨٦، ٢٧٠،

إبراهيم القادري بوشيش: أثر الحروب في المجال الضرائبي، ص ٨٨، رشا سالم: المرجع

السابق، ص ٢٩٥

والأرتياب تطلق على التعامل التجارى معهم^(١) وأصبح كل عمال السلطة يطلق عليهم عمال غصب^(٢) وشدد الفقهاء على ضرورة رد أموال ولاية الجبابة المتعسفين الظالمين إلى بيت المال لأنهم أخذوا أموال حرام وليست ملكاً لهم^(٣) ولا تقبل شهادتهم في أى قضية من القضايا ولا يعتد لهذه الشهادة من الفقهاء والقضاة^(٤).

وعلى الرغم من التشدد والتعسف لدى جبابة الضرائب نجد أيضاً هناك من وزراء الأشغال من كان يراعى الله فى عامة الناس وذلك فى عهد السلاطين الحفصيين الأقوياء لان السلطان نفسه كان يختار لهذا المنصب الهام من يثق فيهم مثلما فعل السلطان أبو زكريا الحفصى^(٥) والسلطان أبو عمرو عثمان عندما أختار فضيلة الفقيه أبا عبد الله محمد بن القاسم ابن قليل الموثوق به العادل المستقيم، فاستقامت الجبابة أيامه أحسن استقامة وألغيت كثير من الجبايات وجعلها لوجه الله سبحانه وتعالى^(٦).

وخلاصة القول نجد أن الوزراء المستبدين بالسلاطين الضعاف؛ كان

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ١١٠.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج ٩، ص ٩٤، البرزلي: جامع، ج ٤، ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٨ - ١٣٩، البرزلي: جامع، ج ٤، ص ٢٦٨، ج ٦، يوضح الونشريسي أن جمع تبرعات الجبابة سواء حبس أو صدقة لا تقبل وهى غير نافذة ومردودة عليها.

(٤) الونشريسي: المصدر السابق، ج ٦، ص ١٣٩.

(٥) ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ٥٧، البرزلي: جامع، ج ٤، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦ - ١١٧، ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ١١٤ -

هدفهم الأول جمع الأموال عن طريق الجبايات سواء شرعية أو غير شرعية، لأنه متيقن أن أيامه في السلطة والسيطرة معدودة، فعندما يتولى سلطان ضعيف الحكم وليسيطر عليه أحد الوزراء ويسلم له نفسه ويقوم برفع بعض الجبايات وإطلاق سراح المسجونين من أجل كسب عطف وتأيد الناس ولكن سرعان ما يعود مرة أخرى إلى الوضع الذي سبقه من فرض الضرائب وجبايات وعسف وظلم في ظل سلطان لا يحرك ساكناً وعلى الرغم من تشديد الفقهاء على عدم أحقيتهم بهذه الأموال بالإضافة إلى قيام الثورات ضد السلطة المركزية بسبب هذه الضرائب وتعسف الجبال وضعف السلطة وفقدان شريعتها وهيبتها^(١) بالإضافة إلى عجز الناس عن الدفع لسوء الأحوال الاقتصادية في فترات التدهور والانهيار بسبب انشغال الوزراء بحروبهم الداخلية والقضاء على الفتن والثورات التي أدت إلى نهاية الدولة على العكس من فترات ازدهار الاقتصاد بسبب الاستقرار السياسي وقوة السلاطين واهتمامهم بالنواحي الاقتصادية ودور وزراءهم في تنفيذ سياستهم والرفق بالناس ومحاسبتهم وتصفية أموالهم.

وكانت نسبة الرسوم المفروضة على جمارك التجار اليهود القادمين من أوروبا صغيرة نسبة إلى أهل الأديان الأخرى بالبلاد الغربية، فكانت تقدر بنسبة تصل إلى ٥ ٪^(٢) أما بضاعة التجار المسيحيين كانت الرسوم الجمركية

(١) أبو حمو موسى الزياتي: واسطة السلوك في سياسة الملوك، مخطوط بمعهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، القاهرة، مكتبة الزيدانية (١٤٥٩) سياسة، ميكرو فيلم ٢٢٤، ورقة ٥

(٢) Di Michele amari: diplomi arabi r-archivio florentina testa originale in firenze dalla tipografia di felice le monnier mdcdxiii p. ٨١

كانت تتراوح بين ٨ ٪، ١٠ ٪، ١١ ٪، ١٢ ٪ حسب الاتفاقيات المبرمة بين الدول الغربية والدول المسيحية^(١).

الوزراء والزراعة في العهد الحفصيّ

تعتبر الزراعة منذ عهود قديمة من أبرز الأنشطة الاقتصادية المزاولة بأفريقيا وذلك بما تمتعت به من مقومات مناخية وجودة تربة كان لها الأثر الأكبر في التوجيه إلى العناية بالأرض من قبل السلطة الحاكمة المتمثلة في السلطان ووزرائه ومزاولة الزراعة من قبل المزارعين والقائمين عليها^(٢) حيث تمتعت بشتى الأنواع النباتية المختلفة، بالنظر إلى مختلف مناطقها المناخية، حيث كانت الأنواع مختلفة بطبيعة الحال، حيث الارتفاع الشاق وطبيعة الأرض، والعوامل البشرية التي كانت مرتبطة أكثر بكميات الأمطار التي كانت تنقص أكثر فأكثر، بقدر ما تتقدم نحو إلى المناطق الداخلية أو الجنوبية وكذلك المياه الجوفية وكانت الحبوب تمثل دوّمًا وأبداً أهم المنتجات الزراعية في أفريقيا^(٣) وتختلف درجات الحرارة وذلك لاختلاف الموقع من حيث

(١) عمر محمد الباروني: العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط مجلة البحوث التاريخية، ليبيا، عدد ٢، ١٩٨٦، ص ٣٢٦، عاشور بوشامة: علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، ص ٣٣٩ - ٣٤٠، محمد إسماعيل، ثورات العرب والبربر واليهود في المغرب الأقصى والأندلس في عهد بنى مرين، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م، ص ١٦٣، رشا سالم، المرجع السابق، ص ٢٩٩

(٢) Doumerc (b): venise et la dynastie hafside a la fin du xvs. in cahiers de la tunisie n: ١١٧- ١١٨ p. ٥٧٣

لمياء محمد سالم شرف الدين: بعض ملامح الأزمة افريقية الاقتصادية ص ١٢٥

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٢٥

العرض ومقدار الارتفاع فوق سطح البحر أدى إلى اختلاف النباتات^(١) وتنوع مصادر المياه بالإضافة إلى جودة التربة وتنوعها ساهم بشكل ملحوظ في تنوع الحياة الزراعية^(٢)

واهتم السكان بالأراضي الزراعية واعتنوا بها وتخصيبها من أجل إنتاج أفضل المحاصيل^(٣) فاستخدموا الكثير من المخصبات التي تساعدهم في زيادة الإنتاج^(٤) التي أثرت عليه التطورات السياسية، حيث نجد أنه في عصر السلاطين الأقوياء نجد اهتمامهم بالزراعة وتكليف وزرائهم بالأشراف على عملية الزراعة^(٥) فقاموا بإعطاء كبار رجال الدولة من الوزراء ملكيات خاصة بهم، وكان الوزراء الأقوياء يسيطرون على ملكياتهم في عهد السلاطين الضعفاء على العكس في عهد السلاطين الأقوياء الذين قاموا بمصادرة أملاك

(١) عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٣٤ حسن على حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، ط ١، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٢٣٢ - ٢٣٣،

(٣) الونشريسي: المعيار، ج ٧، ص ٣٤٣

(٤) المصدر السابق نفسه، ج ٨، ص ٢٦٩، الزركشي، المصدر السابق، ص ٢٥ - ٢٦

(٥) Pon cet (j): Pros perite et decadence l friquennes in charies de la tunisie I , ٢٤٣ ، ٢٢١ p. ١٩٦١ ، ١١

على العكس من عصر السلاطين الضعفاء حيث يتحكم الوزراء في شئون البلاد وتكثر الفتن والثورات وينعدم الأمن الذي لا يتوفر إلا في عهد السلاطين الأقوياء، نجد أن هناك فسادًا كبير في الحياة الاقتصادية وتفقد كثير من المراكز الاقتصادية مكانتها راجع: عبد الواحد المركشي، المعجب، ص ٢٠٠ - ٢٠١

وزرائهم كنوع من أنواع العقاب وذلك لأسباب مختلفة^(١) كما أعطيت الإقطاعيات إلى الوزراء الحفصيين مقابل خدمات يؤديها إلى سلطانه الحفصي^(٢) حيث اختلفت الملكيات والمسميات حيث نجد التفرقة واضحة بين أملاك الدولة التي تسمى بأرض الظهير أو العنوة^(٣) وأملاك السلطان التي أطلق عليها عدة مسميات مثل "خالصة السلطان" أو "الأملاك السلطانية" أو "مختص الملك"^(٤) أو "مختص الحضرة"^(٥) أو "دار المختص"^(٦)

ونجد أن أرض الظهير كانت مواقعها دائماً بالقرب من المدن الكبرى حيث سيطر عليها السلطان القوى ومعه وزرائه أو سيطر عليها الوزراء الأقوياء^(٧) كما أعطى السلاطين الحفصيون وزراءهم لإقطاعات^(٨) في المجال المحيط بالمدينة

(١) الزركشي، المصدر السابق، ص ٢٥-٢٦، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٣، ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٤٥-٤٦، الذخيرة، ج ١، ص ٤٥، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٥، العامري: المرجع السابق، ص ١٧٦

(٢) العامري: المرجع السابق، ص ١٧٦

(٣) أرض الظهير: هي الأرض التي أعتصبها وتم فتحها عنوة والاستيلاء عليها بالقوة وضمتها مباشرة إلى أملاك الدولة وبيت المال أو فرض عليها ضريبة ثقيلة باعتبارها أرضاً ذراجية عنويه ومثل أصنافها الهناشير والضيعات الواسعة، راجع محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٣٠٨-٣٠٩

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٨٩٦

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٧، ١٣٤، ١٥٤

(٦) الترجمان: تحفة الأديب، ص ١٦

(٧) البرزلي المصدر السابق، ج ١١، ص ٣١٢

(٨) الاقطاعات: جمع أقطاع ومصدر أقطع، يقال أقطعة أرض كذا، يقطعه أقطاعاً واستقطعه، وأنقسم لإقطاع في بلاد المغرب الإسلامي إلى إقطاع الرواتب وكان يعطى الجند فيه

وذلك بسبب خصوبتها وإنتاجها الوفير وقربها من السلطة الحاكمة^(١) وعلى الرغم من سيادة نظام الإقطاع في الدولة الحفصية ولكن ذلك لم يمنع من ظهور الملكيات الخاصة للسلطين ووزرائهم وكبار رجال الدولة من مشايخ القبائل والتجار وهذه الملكية الخاصة لم تؤدِ إلى حدوث أي تفاوت بين الدولة والعصبيات^(٢) فنجد الوزير الأكبر ابن اللحياني يعطى أحد مشايخ القبائل أرض الظهير الخاصة بالدولة الواقعة بين صفاقس وقابس وذلك من أجل زراعتها والاهتمام بها^(٣) مقابل ضريبة يدفعها للدولة وأقطع الجند وقادة الجيوش

رواتبهم، وكذلك رواتب النبلاء والوزراء وإقطاع التسكين: ويقطع لمن يخشون فتنه وإقطاع الهبة وتمنح مقابل خدمة قدمت للدولة لحفظ الأمن راجع: أبْن خلدون: التعريف بابن خلدون: ورحلته شرقاً وغرباً، عارضه بأصوله وعلق على حواشيه محمد ابن تاووت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٣ مارمول كربخال: أفريقيا، ج ٢، ص ٣٠٠، الوزان: وصف أفريقيا، ج ١، ص ٤٧، أبى الحسن العلمى: كتاب النوازل، تحقيق المجلس الأعلى العلمى بفاس، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، (د.ت) ج ٣، ص ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين، نشر عبد الهادى التازي، بيروت، ١٩٦٤، ص ٤٣٨، الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ٢٦٧ - ٢٦٩، محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٠، ص ٣٤٤.

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ٢٦٧، الحبيب الجنحاني: تاريخ المغرب والحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص ١١٥.

(٢) المالكي: أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله، (ت نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق / حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١م، ج ٢، ص ٣٢٢، الونشريسي: المعيار، ج ٦، ص ٣٠٩، ج ٧، ص ٢٩٤، ج ٨، ص ١٠٦ - ١٧٤.

(٣) التجانى: الرحلة، ص ٢٣ - ٢٤، تعتبر هذه الأراضي ملكاً لبيت المال يؤدى المستغل لها وهى

إقطاعات كرواتب لهم كانت على شكل ربع عقارى أو هبة مالية تعطى فى المناسبات وكانت تسمى البركة والمواساة والإحسان، وكانت تفرق على القواد وجنودهم أربع مرات فى السنة فى عيد الفطر وشهر رجب وربيع أول وعيد الأضحى وكانت تعادل أربعين ديناراً مسماة أو ثلاثمائة درهم عتيقة، ولكن كان كبير الوزراء والوزراء وأكابر الحفصيين تمنح لهم إقطاعات كبيرة من الأرض من أجل الزراعة ولهم عشر ما يخرج منها^(١).

واختلفت إقطاعات الجند حسب مكانتهم الاجتماعية وقربهم أو بعدهم عن السلطان فكان من كبار المشايخ من الوزير الأكبر والوزراء الآخرين هم على رأس الجند وكانت مساحتهم مقدار حرث عشرة أزواج بقرًا^(٢) حيث كان وزراء الدولة الحفصية وزراء سيف وقادة للجيش الحفصية لذلك كان لهم نصيب الأسد من الإقطاعات الزراعية الصالحة للزراعة، ولا بد فإن الوزراء كانوا يهتمون بهذه الإقطاعات ولكن الأمر الأكثر احتمالاً أنهم أوكلوا أمر العناية بها لغيرهم بسبب انشغالهم بالحروب وأمور السلطة وقيادة الجيش، وكان المزارعون القائمون بأعمال الزراعة لدى الوزراء والجنود يتقاضون مبالغ نقدية يدفع لهم فى الصيف أو عن طريق شريك ثان^(٣) وكان الوزراء

لا تباع ولا تورث ولا تحاز إلا أن يقطعها السلطان لا حد من شيوخ القبائل أو الجند أو العلماء أو الصلحاء أو الأعراب فتبقى بيده ما لم يزلها منه أو يمت الخليفة والذى منحها، فتحتاج عندها إلى تجديد الظهير ويجوز أن يسلبها ليقوم ويعطيها السلطان أو الوزير القوى لآخرين بحسب اجتهاده راجع: البرزلى؛ المصدر السابق، ج ٢، ص.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٤٣٨.

(٢) العمرى: المسالك، ص ٢٣٨.

(٣) البرزلى: نوازل، ج ٢، ص ١١٢، لمياء محمد سالم: المرجع السابق، ص ١٢٩، ص

وكبار رجال الدولة يحصلون على أعلى مساحات من الأراضي المخصصة للزراعة ثم يأتي الأقل في المنزلة إلى السلطان الحفصي^(١).

ولعب الوزراء الحفصيون دورًا هامًا في عمليات توزيع الإقطاعات وخاصة على القبائل القوية صاحبة العصبة والنفوذ والشوكة، فنجد أن وزير السلطان المستنصر يساعد السلطان ويقنعه بالتقرب من قبيلة توجين وأقطعهم ناحية مقرة حتى يكونوا خط دفاع أول في وجه قبائل الدواودة من بنى رياح وذلك أثناء حرب السلطان المستنصر معهم عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م^(٢) ولكن سيطر الدواودة على الزاب والحضنة وجبل أوراس^(*) والتلول الشمالية وعجزت الدولة عن التصدي لهم فكان من الوزراء إلا أن أشاروا على السلطان باصطناعهم واستمالتهم فأقطعهم الأراضي التي استولوا عليها من السلطان مثل مقرة ونقاوس مسيلة^{(**)(٣)} وكذلك قام وزراء السلطان المستنصر بعد التشاور معه في أقطاع قبائل أخرى أقطاعات من أجل استمالتهم

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٣٢٢

(٢) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٧، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٩ - ٦٦٠، مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق / ص ١٢٤ - ١٢٥.

(*) جبال أوراس: هي كتل جبلية عالية جدًا تقع على مسافة ثمانين ميلاً من بجاية وستين ميلاً من قسطنطينية وتتوفر بها مياه الآبار التي يتاح ماؤها في السهل راجع الوزان، وصف أفريقيا، ص ٤٧٥.

(**) مسيليه: مدينة قديمة تقع على مسافة مائة وأربعين ميلاً من بجاية وسكانها لها نشاطهم الاقتصادي من زراعة وصناعة منهم المزارعون والصناع، حيث فرض العرب نفوذهم عليهم واستولوا على أموالهم وأقواهم، راجع الوزان، المصدر السابق، ص ٤٢٤.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٦٢ - ٦٦٣.

فمثلاً أعطى مشايخ بجهة القيروان، كما أعطى أحد المشايخ وهو أبو رحمة غيث الحكيمي، وميمون بن كرناح الوائلي، كما ساهم وزرائه في إقطاع أربع قرى بناحية صفاقس والجريد واشمال لأحد مشايخ الكعوب^(١) وهنا نجد دور الوزراء الواضح البارز في عملية الزراعة والاهتمام بها سواء عن طريق تملكهم لإقطاعات زراعية وزراعتها أو عن طريق إعطائها لمن يزرعها مع دفع مقابل مالى للوزير والدولة.

وكانت القبائل المساندة للسلطة المتمثلة في السلطان الحفصى ووزيره سواء في فترات نفوذ الوزراء أو قوة السلاطين الحفصيين هي صاحبة النصيب الأكبر من توزيع الأراضي الزراعية وملكيته خاصة الأراضي الزراعية في المناطق البعيدة عن العاصمة^(٢) فقام الوزير الأكبر الأسبق ابن الليحاني السلطان الحالى بأمر وزرائه بقيادة وزيره أبى عبد الله بن ياسين بتوزيع الأراضي الزراعية عام ٧١٨ هـ / ٨ / ٨٣ على قبائل علاق ودباب^(٣) وذلك من أجل زراعتها وكسب ودهم وولائهم، وكذلك اتبع وزراء السلطان الحفصى الفضل سياسة مرنة مع الأعراب فاقطعواهم الأراضي الزراعية الحفصية من أجل زراعتها والاستقرار ومنحهم إقطاعات من أجل مساعدته في دخول مدينة قسطنطينية التى دخلها سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م^(٤) وكان هدف الوزراء

(١) نفس المصدر السابق، ج ٦، ص ١٢، ص ١٤٩.

(٢) ابن خلدون: العبر، ص ٦، ج ١١، ص ٧٤ - ٧٥.

(٣) ابن خلدون: العبر، ص ٦، ج ١٢، ص ٧٥٤، التجانى: المصدر السابق، ص، ابن أبى دينار:

المصدر السابق، ص ١٦٢، الزركشى المصدر السابق ص ٦٥.

(٤) ابن خلدون: العبر، ص ٦، ج ١٢، ص ٨٢٢.

وسلاطينهم من ذلك هو عملية استقرار القبائل وقيام الزراعة وازدهارها، ونجد ذلك واضحاً أيضاً في عهد السلطان أبى عصيدة ووزرائه أبى يحيى زكرياء بأن اللحياني ومحمد بن أزرقان من حيث ازدهار الزرع والزراعة^(١)

ونلاحظ أنه في عصر السلاطين الأقوياء أو ضعف نفوذ الوزراء كان هناك اهتمام كبير بالزراعة والمزارعين ووجهة السلطة الحفصية عناية خاصة بالفلاحة والأرض مما أدى إلى زيادة الإنتاج ووفرة موارد الدولة حيث الاستقرار وارتفاع مستوى المعيشة مما شجع السلاطين الأقوياء ووزرائهم إلى حركة التعمير والإنشاء التي بلغت أوجها في العصر الحفصي^(٢) حيث قام وزراء السلطان المستنصر ببناء الحنايا التي كان يجري عليها الماء إلى مدينة قرطاجنة فأصلحها وأجرى عليها الماء^(٣)، وازدهرت أيضاً بسبب حرص الوزراء والعلماء والصلحاء والشرفاء من ممارسة الزراعة والاعتناء بالزراعة والمزارعين^(٤)

وكان للإقطاعات الزراعية دورها أيضاً في ازدهار الزراعة حيث ساعدت على استقرار البدو وقيامهم بالزراعة والمساهمة في عملية الإنتاج وزيادة

(١) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٢) الدالى (الهادى مبروك الدالى): مملكة مالى الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت لبنان (د - ت) ص ١٣٣.

(٣) ابن أبى دينار: المؤنس، ص ١٥٨.

(٤) البرزلى: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٧-١٨٨، الغبريني: عنوان الدراية، ص ١٧٦، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٣٣٠-٣٣١.

الدخل بدلاً من الغزو وقطع الطرق^(١) وذلك في عهد السلاطين الأقوياء حيث وجهوا اهتمام وزرائهم إلى الزراعة والمزارعين على العكس من فترات نفوذ الوزراء أو تحكمهم في السلطة بعد أن هجر المزارعون الأراضي عام ٧٤٩هـ / ١٣٥٠م بسبب الطاعون الجارف لدرجة أن الشيخ ابن عبد السلام شجع على إعادة إعمار الأراضي وزراعتها بعد بوارها^(٢)

وفي أثناء عصر السلاطين الأقوياء ووزرائهم أعطت الدولة اهتماماً بالغاً بالزراعة وحرصت على بسط نفوذها الاقتصادي والسياسي على كل البلاد سكاناً وأراضي وذلك من أجل تنظيم عملية استغلال الأرض والإشراف عليها وتوزيعها وإقطاعها أقطاع منفعة للقوى المساندة للدولة سواء كانوا وزراء أو قبائل ذات وزن اجتماعي وسياسي، وكذلك من أجل ازدياد المغارم والوظائف التي تؤخذ على الأرض مقابل استغلالها، وهذا يدل على مدى نفوذ وقوة السلطان الحفصي ومدى طاعة وزرائه له مما يترتب على ذلك من انتعاش قوة الدولة السياسية والاقتصادية^(٣).

وعندما يقوى الوزراء ويصبحون أصحاب الكلمة والسلطان الحفصي مجرد رمز فقط العوبة تحركها يد الوزير المستبد به، نجد أن الزراعة تبدأ في عملية الانهيار بسبب المشكلات التي تطرأ على المجال الزراعي حيث يقل عدد المزارعين وتراجع المساحات المزروعة وتكثر الأراضي البور^(٤) كما وجد

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٣٣٣.

(٢) البرزلي: المصدر السابق، ج ١، ص

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٣٣٦

(٤) الوزن: وصف إفريقية، ج ٢، ص، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦

صعوبة بالغة في اقتلاع وإخراج الفلاحين من أرض الوزراء والقواد، بسبب تغلغل نفوذ هؤلاء المزارعين جيلاً بعد جيل وتمسكهم بالأرض والقيام بتعميرها فزرعوها سودانى وبقوليات كما بنوا فيها منازلهم ليكون بالقرب منها ورعايتها بالاهتمام بها^(١) ونجد حدوث مشاكل كثيرة حدثت على الأراضي الزراعية وخاصة في عهد نفوذ الوزراء الحفصيين، حيث تعرضت كثير من النوازل حدوث منازعات بين المستغل (المزارع) القديم للأرض والمشتري الجديد لها وخاصة عند يسعها من جانب السلطة الحفصية، المتمثلة في السلطان الحفصى الضعيف ووزيره المستبد^(٢) ونظراً للمشاكل حول انتقال الأرض وتملكه، نجد أن القضاة الحفصيين اشترطوا العقد الأصلي (وثيقة العقار) بالإضافة إلى رسم الشراء ولم تكن نسخة الأرض الأصلية متيسرة غالباً، حيث كانت وثائق الدولة والسلطة الحفصية، مهمة وقليلة التنظيم مما أدى إلى كثرة المنازعات على أراضي الدولة الحفصية، وبيع الأراضي أكثر من مرة بعد فترة زمنية فتعود مع بيعها المشاكل والمنازعات^(٣).

وهنا تبين أن الوزراء الحفصيين كانوا دائماً على الاستعداد من كسب المال عن طريق مشروع أو غير مشروع لأنه يعلم أن أيامه في الوزارة قليلة فكانوا يسعون دائماً إلى جمع المال، فكانوا دائماً يسعون في بيع أراضي الدولة، فتتكون ثروات يسهل الهرب بها عند الضرورة وهناك أمثلة تبين لنا نهاية الوزراء المستبدين الذين تم تصفية أمواهم ومصادرتها بعد أن يتم نفيهم أو قتلهم إلى

(١) البرزلى، المصدر السابق، ج ٢، ص

(٢) البرزلى: المصدر السابق، ج ٢، ص

(٣) البرزلى: المصدر السابق، ج ٢، ص

أن تذهب ثرواتهم وتتلاشي^(١).

وظهرت مشكلات أخرى منها ضياع العقد الأصلي للأراضي أو اللجوء إلى تزييف هذه الوثائق (العقود)^(٢) وأدى ذلك إلى امتلاك الوزراء وقائدي الجيوش إلى ازدياد ملكيتهم الخاصة من الضياع، واستثمار الأموال في اشتراء العقارات في حالة ضعف السلطان الحفصي واستبداد الوزراء لدرجة أن العليج هلال قائد الجيش الحفصي الذي كان يعتبر وزيراً للجند في عهد السلطان المستنصر كان يستلم يومياً بيديه ألف ديناراً^(٣) وأيضاً قائد الجند نبيل الذي بلغت ثروته عشرين قنطاراً من الذهب وما يقرب ذلك من العقارات والأثاث والمجوهرات، كل ذلك كان مستخلصاً من أيدي الفلاحين الحفصيين^(٤) وهنا نجد الوزراء الارستقراطيين قد اتسعت ثروتهم العقارية ذات السمة الإقطاعية بتونس^(٥) وقد تمكن الوزراء وكبار التجار من تكون ثروات عقارية ضخمة والسيطرة على ملكيات كبيرة من الضيعات الكبيرة والقرى حيث نجد الوزير أبا عبد الله محمد الرميى الذي خرج من المرية سنة ٦٤٣هـ / ١٢٣٦م والتحق بتونس واستوطن بها، حيث تملك الضياع وشيد القصور وامتلك القرى

(١) محمد عابد الجابري: العصية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامى، دار الثقافة

الدار البيضاء، ط ١، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م، ص ٣٦٣

(٢) البرزلى: المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٤١

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٣، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٧

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٩٤ - ١٩٥

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٣-٣٤، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٣٤١.

الزرية^(١)

وهنا نجد أن قوة السلاطين تنعكس على ملكية الأرض الزراعية، ولأن الاستقرار الذى يؤدي إلى ازدهار حماية الزراعة والإقبال الشديد من المزارعين على الزراعة، والعمل على التشييد والبناء وارتفاع المستوى المعيشى وإقبال السلاطين على مشروعات متنوعة ضخمة تساعد على انتعاش خزينة الدولة على عكس نفوذ الوزراء حيث ينصب اهتمامهم على اقتطاعتهم وزيادتها وجمع الأموال.

وعرف المغرب الحفصى نظام الزراعة أو المشاركة^(٢) فى الزراعة، والحرث على أن يتساوى الشريكان فى الأرض والبقر والآلة وهذا أدى إلى كثير من المشاكل^(٣) التى ظهرت بوضوح فى أثناء فترات ضعف السلطان الحفصى وقوة نفوذ الوزراء كما جرت العادة على أن يقوم المزارعون باستعادة البقر من أجل الحرث^(٤) وحاول الفقهاء فى عهد السلاطين الأقوياء والوزراء المفوضين من إيجاد مقياس مضبوط أو معيار موحد من أجل تقويم العناصر المكونة للشركة

-
- (١) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٤٣ - ٤٤، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١١، ص ٦١٥.
- (٢) المزارعة هى طريقة استغلال الأرض الزراعية بالاشتراك بين المالك والمزارع واقتسام المحصول بينهما بنسبة يعينها العقد والعرف ولا تلزم بالعمل لأخ الونشريسي: ج، ص، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٥ هامش
- (٣) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ١٤٨
- (٤) نفس المصدر السابق ج ٨، ص ١٥٧، ج ٩، ص ١١٠، كمال أبو مصطفى: جوانب من حياة المغرب، ص ١٦٤، رشا سالم، المرجع السابق ص ٢٢٥، كمال أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية فى المغرب الإسلامى من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص ١٦٤.

من زرع وآلة وبقر وعمال وكأن هذا أمر ضرورياً لقيام الشركة على أسس صلبة من شأنها القضاء على المشكلات والخلافات والنزاعات^(١) وكثيراً ما حدث مشكلة للفلاح الذي يعمل في الزراعة والبقر والبذور والأرض لغيره فيحصل له السدس أو السبع، واعتبر أبو حنيفة أن ذلك لا يمكن أن يكون شركة، أما أجازة بينما أجازة بعض الفقهاء^(٢).

ومع سيطرة الوزراء وضعف السلاطين الحفصيين حيث تفكك الوحدة السياسية للدولة وما يترتب على ذلك من انتشار الفوضى وإهمال الفلاحة وسيطرة البداوة تطورت شركات المزارعة حيث سيطرت زراعة الحبوب الشاسعة على بقية المزروعات من أشجار وخضروات وغيرها وكذلك كثرت مشاكل الشركة بسبب الاتفاق الشفوي وعدم وجود عقد بين المشاركين^(٣) وقلت شركات المغارسة والمساواة عن المزارعة بسبب تعلب وسيطرة الفلاحة الشاسعة لقلّة التقنيات المتطورة في ميدان الري والمشاتل^(٤) وكثرت أيضاً المشاكل والمنازعات عند القسم بين الغارس وصاحب الأرض بسبب عدم الاتفاق مسبقاً على نسبة كل منهما وعندما يقوى الوزراء ويصبحون أصحاب الكلمة والسلطان الحفصي مجرد رمز فقط العوبة تحركها يد الوزير المستبد به، نجد أن الزراعة تبدأ في عملية الانهيار بسبب المشكلات التي تطرأ على المجال الزراعي حيث يقل عدد المزارعين وتراجع المساحات المزروعة وتكثر

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ١٤٨

(٢) أبو يوسف (يعقوب): كتاب الخراج، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٠٦ - ٢١١

(٣) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ١٥٧

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٤١٦

الأراضي البور^(١) كما وجد صعوبة بالغة في اقتلاع وإخراج الفلاحين من أرض الوزراء والقواد، بسبب تغلغل نفوذ هؤلاء المزارعين جيلاً بعد جيل وتمسكهم بالأرض والقيام بتعميرها فزرعوها سوداني وبقوليات كما بنوا فيها منازلهم ليكون بالقرب منها ورعايتها بالاهتمام بها^(٢) ونجد حدوث مشاكل كثيرة حدثت على الأراضي الزراعية وخاصة في عهد نفوذ الوزراء الحفصيين، حيث تعرضت كثير من النوازل حدوث منازعات بين المستغل (المزارع) القديم للأرض والمشتري الجديد لها وخاصة عند يسعها من جانب السلطة الحفصية، المتمثلة في السلطان الحفصي الضعيف ووزيره المستبد^(٣) ونظراً للمشاكل حول انتقال الأرض وتملكه، نجد أن القضاة الحفصيين اشترطوا العقد الأصلي (وثيقة العقار) بالإضافة إلى رسم الشراء ولم تكن نسخة الأرض الأصلية متيسرة غالباً، حيث كانت وثائق الدولة والسلطة الحفصية، مهمة وقليلة التنظيم مما أدى إلى كثرة المنازعات على أراضي الدولة الحفصية، وبيع الأراضي أكثر من مرة بعد فترة زمنية فتعود مع بيعها المشاكل والمنازعات^(٤).

وهنا تبين أن الوزراء الحفصيين كانوا دائماً على الاستعداد من كسب المال عن طريق مشروع أو غير مشروع لأنه يعلم أن أيامه في الوزارة قليلة فكانوا يسعون دائماً إلى جمع المال، فكانوا دائماً يسعون في بيع أراضي الدولة، فتتكون ثروات يسهل الهرب بها عند الضرورة وهناك أمثلة تبين لنا نهاية الوزراء

(١) الوزن: وصف إفريقيا، ج ٢، ص، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦

(٢) البرزلي، المصدر السابق، ج ٢، ص

(٣) البرزلي: المصدر السابق، ج ٢، ص

(٤) البرزلي: المصدر السابق، ج ٢، ص

المستبدين الذين تم تصفية أموالهم ومصادرتها بعد أن يتم نفيهم أو قتلهم إلى أن تذهب ثرواتهم وتلاشي^(١).

وظهرت مشكلات أخرى منها ضياع العقد الأصلي للأراضي أو اللجوء إلى تزييف هذه الوثائق (العقود)^(٢) وأدى ذلك إلى امتلاك الوزراء وقائدي الجيوش إلى ازدياد ملكيتهم الخاصة من الضياع، واستثمار الأموال في اشتراء العقارات في حالة ضعف السلطان الحفصي واستبداد الوزراء لدرجة أن العليج هلال قائد الجيش الحفصي الذي كان يعتبر وزيراً للجند في عهد السلطان المستنصر كان يستلم يومياً بيديه ألف ديناراً^(٣) وأيضاً قائد الجند نبيل الذي بلغت ثروته عشرين قنطاراً من الذهب وما يقرب ذلك من العقارات والأثاث والمجوهرات، كل ذلك كان مستخلصاً من أيدي الفلاحين الحفصيين^(٤) وهنا نجد الوزراء الارستقراطيين قد اتسعت ثروتهم العقارية ذات السمة الإقطاعية بتونس^(٥) وقد تمكن الوزراء وكبار التجار من تكون ثروات عقارية ضخمة والسيطرة على ملكيات كبيرة من الضيعات الكبيرة والقرى حيث نجد الوزير أبا عبد الله محمد الرميى الذي خرج من المرية سنة ٦٤٣هـ / ١٢٣٦م والتحق بتونس واستوطن بها، حيث تملك الضياع وشيد القصور وامتلك القرى

(١) محمد عابد الجابري: العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامى، دار الثقافة

الدار البيضاء، ط ١، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م، ص ٣٦٣

(٢) البرزلى: المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٤١

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٣، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٧

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٩٤ - ١٩٥

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٣-٣٤، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٣٤١.

الزرية^(١)

وهنا نجد أن قوة السلاطين تنعكس على ملكية الأرض الزراعية، ولأن الاستقرار الذى يؤدي إلى ازدهار حماية الزراعة والإقبال الشديد من المزارعين على الزراعة، والعمل على التشييد والبناء وارتفاع المستوى المعيشى وإقبال السلاطين على مشروعات متنوعة ضخمة تساعد على انتعاش خزينة الدولة على عكس نفوذ الوزراء حيث ينصب اهتمامهم على اقتطاعتهم وزيادتها وجمع الأموال.

وخلاصة القول أن الزراعة انتعشت في عهد السلاطين الأقوياء وقلت مشاكلها وكثرت مشروعات الري والزراعة فازدهرت الزراعة وعم الرخاء بلا حدود على العكس من فترات سيطرة الوزراء على شئون الدولة فيقل الاهتمام بالزراعة بسبب سعيهم لجمع الأموال.

أسباب التدهور الزراعى فى عهد نفوذ الوزراء الحفصيين:

لقد ساعدت عدة عوامل أخرى على تدهور الزراعة وتراجعها في عهد نفوذ الوزراء منها عوامل طبيعية وأخرى بشرية:

(١) الكوارث الطبيعية والبيئية:

لقد تأثر الإنسان المغربى في العصر الوسيط بالكوارث الطبيعية والبيئية وبالتالي تأثر المحصول والإنتاج الزراعى مع حركة الإنسان الحفصى^(٢) حيث ترك الناس الأرض والزراعة لما ترتب عليها التعسف الجبائى وكثرة الفتن

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٤٣ - ٤٤، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١١، ص ٦١٥.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٣٩٩، الجابري: العصبية والدولة، ص ٤٠٢ - ٤٠٥.

والثورات ووقع هذا التأثير على الفلاح وقل الاهتمام بالفلاحين والزراعة^(١) وأيضا على الحياة الاقتصادية بشتى أنواعها ولكن ماذا كان دور الوزراء الحفصيين أثناء تلك الجوائح وهل استمر دورهم في أثناء فترات حكم السلاطين الأقوياء أم اختلف دور الوزراء في أثناء سيطرتهم وفرض سطوتهم على السلاطين الضعاف.

وكان للجوائح الطبيعية أثرها الواضح على أوضاع الفلاحين حيث أدت المجاعات والأوبئة والجراد^(٢) والنار والرياح والبرد والمطر والعفن والطيور والغبار والدود والحر والسموم وكل ما لا يستطيع دفعه والمطر إذا كثر عن اللزوم ينتج عنه سيول وفيضانات وقلتها يعنى الجفاف^(٣)، إلى تدهور أوضاع الفلاحين وكثرة الأزمات التى تحوم بهم^(٤).

وكان الجفاف أكثر خطراً من بقية الآفات وكان المطر حدثاً هاماً في حياة الناس، وكثيراً ما تسبب الجفاف في ثورات رهيبة، وذلك انعدام المحصول الزراعى، ولجأ الفلاحون إلى التسلف، على أمل إرجاعه في السنة الموالية، لدرجة أنهم حصدوا زروعهم قبل نضجه، وذلك عام ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م مما جعل الناس تأكل القمح فريگاً^(٥) وذلك في عهد السلطان أبى إسحاق إبراهيم

(١) ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٣٩٩.

(٢) البرزلى: جامع، ج ٢، ص، ابن خلدون: العبر، ج ١، ص، ابن ناجى، معالم الإيمان: ج ٤، ص ١٦٩

(٣) البرزلى، جامع، ج ٢، ص، ابن ناجى، معالم الإيمان، ج ٤، ص ١٦٩.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٤٠١.

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٥، ابن ناجى معالم الأعيان، ج ٤، ص ٢٣١، محمد حسن:

ووزرائه الذين لم يحركون ساكنًا بسبب انشغالهم بأهدافهم وهى السيطرة على أمور الحكم، والتنافس بين الوزراء لجمع الأموال^(١) وفى ذلك يقول الزركشى " ورأى الناس أية عظمة فى الزرع أكل القمح فريكا ثم عدم فى سنبله فإذا حصد جمعت الأغمار ولم يجد فيها شيئاً فهلك البقر الذى أكل ذلك الزرع التالف، وكان ذلك فى جميع إفريقية^(٢) حيث تفرغ السلطان الى الملذات والراحة، ووفر له الوقت ما يسمح له بإشباع تلك الملذات^(٣) وقام بقتل الوزير ابن الجبير وتصفاهيه أمواله^(٤) ولجوء الأعراب للاستيلاء على القرى والمنازل ونهب الأموال^(٥) مما زال من معاناة الفلاحين وضاق الحال بين الناس والسلطان ووزرائه فى عقله مما يحدث بإفريقية ولم يحركوا ساكنًا، وقد أدى الجفاف الشديد ٨٠٠هـ فى عهد السلطان أبى فارس عبد العزيز الى تحرك القبائل من مجالها وشد رحالها من أجل البحث عن المياه والتربة الخصبة، حيث اجبر بدو برقه أكل العشب والخروج من ديارهم، ولكن الكثير قد مات من شدة الرياح الرملية القوية^(٦) ويصفها لنا البرزلى^(٧) فيقول " وأخذنا تنادىح بالاكراخ فيمشى الرجل، ثم يسقط ميتاً من ريح أصابهم، يقال له ريح

المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦٠٤.

(١) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٣، ص ٤٤، المطوي: السلطنة الحفصية، ص ٢٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص ١٣٧، المطوي: السلطنة، ص ٢٣٨ - ٢٣٩

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٣

(٥) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٤٩

(٦) البرزلى: جامع، ج ٢، ص، محمد حسن: المدينة والبادية، ص ٦٠٤

(٧) جامع، ج ٢، ص

السديد، وشاع وذاع أنه فقد من المحمل والتجريدة أزيد من ألف نسمة، وكذا فقد من الركب المغراوي والمغربى بشرًا كثيرًا أيضًا، ولما وردنا على أرضا برقة مات من الركب ومرض شيء كثير، ومن فقد لم يظهر له خبر البتة". مما أثر على عملية الزراعة والجفاف وموت عدد كبير من المزارعين القائمين بأعمال الفلاحة^(١) على الرغم من المجهود العظيمة التي يبذلها السلطان أبو فارس ووزرائه من أجل توفير المياه للعطشى عن طريق إنشاء الأصبلة والسقايا^(٢). لأن وزراءه كانوا تحت طاعته ينفذون أوامره حيث تميز السلطان أبو فارس عبد العزيز بالشجاعة والحزم^(٣).

ولجأ الناس إلى صلاة الاستسقاء في سنوات القحط والجفاف، وضعف الإتياع حيث فضل بعض العلماء عدم القيام بها تحاشيًا لرد فعل العامة وارتفاع الأسعار^(٤) بسبب ما يترتب على الجفاف من تدمير الزرع والمحاصيل^(٥) ومعاناة الفلاحين لأنهم الأكثر ضررًا من هذه المجاعات بما تسببه لهم هذه

(١) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي وعبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ج ٢، ص ١٣.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ١١٦ - ١١٩، المطوية: السلطنة، ص ٥٩٤، ابن أبى الضياف، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٣) ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص ١٧٥.

(*) صلاة الإستسقاء: عندما يحدث قحط في البلاد ولا تنزل الأمطار فكان يجتمع السلطان ووزرائه وكبار رجال دولته والقبائل يصلون صلاة الاستسقاء ويدعون الله لنزول المطر، راجع ابن الأحرر: بيوتات فاس الكبرى، ص ٦٤.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ص ٦٠٥.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج ٧، ص ٢٣٠.

الكوارث من تدهور وانحطاط حياتهم الاجتماعية^(١) والاقتصادية وخاصة فترات ضعف السلاطين ونفوذ الوزراء حيث أثرت هذه الكوارث على الزراعة والمزارعين خاصة والحياة الاقتصادية عامة فانعكس ذلك على الحياة السياسية وخاصة فترات تملك الوزراء للسلطة^(٢) ولكن في عهد قوة السلاطين أصحاب القوة والسيطرة انتعشت حالة البلاد الاقتصادية وتمتعت بالهدوء في شتى الميادين المختلفة^(٣) حيث التقدم والازدهار والرقى بسبب قوة السلطة المركزية وسيطرتها على أحداث الدولة.

وتوالت الكوارث الطبيعية على تونس الحفصية حيث حدث طاعون ومجاعة عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م في عهد السلطان الحفصي أبى زكريا يحيى ٦٢٥ هـ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م فكانت المجاعة شديدة ووجد الناس يموتون في الأسواق واشتد الطاعون داخل البلاد حيث كان يسعى السلطان الحفصي الى الاستقلال عن الدولة الموحدية الضعيفة وتكون وإعلان الدولة الحفصية وذلك عام ٦٣٤ هـ - ١٢٣٦ م.

(١) ابراهيم القادري: الإسلام السرى، ص ٢١٤ - ٢١٥

(٢) ابن فضل العمري (شهاب الدين): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ت: حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، (د-ت)، ص ٢، عبد الوهاب منصور: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٣٢، ابن القنفذ: المصدر السابق، المطوي: السلطة الحفصية، ص ٦٧٨

(٣) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٧٧، مصطفى حسن الكناني: حملة لويس التاسع على تونس، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٥، ص ٢٩١.

وحدثت مجاعة أخرى بأفريقيا عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م^(١) في عهد السلطان أبى زكريا عين ٦٢٦ هـ / ١٢٢٧ م - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م^(٢) حيث اشتدت المجاعة في البر والبحر وعانت الرعايا وخاصة أهل برقة من الجوع والخوف الذي أنتشر في جميع أنحاء الدولة الحفصية^(٣) وحاول السلطان ووزرائه الذين كانوا تحت أوامره من تحقيق الرخاء والسعادة للناس، فعملوا على الغرس والزرع من أجل التغلب على هذه المجاعات والظروف الصعبة^(٤) وتكررت في عهده أيضاً عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م غلاء شديد ووباء مفرط هرب منه أكثر أهل البلاد، حيث وصل قفيز القمح ثلاثين ديناراً^(٥) وهنا حاول السلطان أبو زكريا الحفصي أيضاً ووزرائه أن يواجهوا هذه المواقف الصعبة وخاصة أن هذه المجاعة والوباء وما نتج عنه من ارتفاع للأسعار حيث عملوا على إسعاد الناس وراحتهم، وأكسبهم أموالاً، ووفروا للرعية الأرزاق، وأكثروا لهم الأفراح حيث جمع رئاسة دولته من العلماء والرؤساء^(٦) لأن السلطان عمل من أجل استجلاب محبة الناس عن طريق الإحسان إليهم وخاصة في أوقات

(١) محمد حسن، المدينة والبادية، ص ٦١٤

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١١، ص، محمد حسن، المدينة والبادية، نفس الصفحة

(٣) نلاحظ أن هذه المجاعة كانت في عهد السلطان الحفصي أبى زكريا الحفصي حيث كانت الدولة في بدايتها والسلطان يحاول تثبيت دعائم حكمه وذلك من مسانده سلطانهم الذي حاول كسب ولاء الناس

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٢، المطوي: السلطنة، ص ١٣٠

(٥) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦١٤

(٦) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص ١١٢ - ١١٣

الشدة^(١) وكذلك سار على نهجه ومسلكه وزرائه الذين نفذوا أوامره بكل دقة من أجل كسب ود وحب السلطان والمحافظة على مراكزهم في السلطة والسعى إلى التقرب إلى السلطان خوفاً من بطشه ومصادرة أموال من يحاول مخالفته حيث كان السلطان دائماً يحاسب وزراءه ودائماً ما يكون هو مثلاً يحتذى به^(٢).

وفي عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، أنتشر الوباء في تونس، حيث مرض بها الناس^(٣). وذلك في عهد السلطان الحفصي أبى عبد الله محمد المستنصر (٦٤٧هـ - ٦٧٥هـ / ١٢٤٩م - ١٢٧٧م) الذي حدث في بداية عهده صراع وانشقاق حيث الدسائس والحيل حيث نجد أن وزراءه أنفسهم قاموا بمظاهرات ضده أو مساندة الخارجين عليها، وقاوموا وزراءه بأعمال النهب والقتل مما جعله ينقلب عليهم ويقتلهم ويصادر أموالهم^(٤) وقد يكون ذلك بسبب انشغالهم عن مصالح الرعية والتفرغ لجميع الأموال والسيطرة على أمور الحكم^(٥) في بداية توليه السلطة الحفصية بسبب صغر سنه^(٦) ومع ذلك فإنه حاول أن يعلم ويحكم بالعدل وانتشرت سمعته وساندته جميع البلاد

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٠٨

(٢) ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص ١٩٨.

(٣) أبى الشجاع: المصدر السابق، ص ١٢١، محمد حسن: المدينة البادية، ص ٦١٥

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٣، المطوي: السلطنة، ص ١٧٦

(٥) أبى أبى الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٤، الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٦) أبى أبى الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٤، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٢٧.

وأحبه^(١).

وتكررت المجاعات والأمراض وارتفاع الأسعار في عهد السلطان الحفصي المستنصر حيث انتشرت هذه الأوبئة عام ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م عندما غزا النصارى تونس حيث انتشرت المجاعات ومات كثير من السكان^(٢) وعلى الفور أصدر السلطان الحفصي لوزرائه قراراته بسرعة التنفيذ وأخذ الاحتياطات اللازمة من أجل مكافحة المجاعة وكذلك العدو، وقام الوزراء الحفصيون بتوفير الحبوب في جميع الثغور والولايات^(٣) وأمر وزرائه بأن يشجعوا المزارعين بكثرة الزراعة في جميع أنحاء البلاد الحفصية^(٤).

وكان للجراد دور كبير في أحداث المجاعات في بلاد إفريقية الحفصية حيث هاجم الجراد بلاد المغرب عام ٦٧٩ هـ / ١٢٧٠ م^(٥) في عهد السلطان أبي إسحاق إبراهيم الحفصي (٦٧٣ هـ - ٦٨١ هـ / ١٢٧٩ م - ١٢٧٠ م)^(٦)، حدثت المجاعات وارتفعت الأسعار لأن الجراد أكل جميع الزروع ولم يترك بها

(١) ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٠.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٦٥ - ٦٧٠.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٢، وهنا تمكن أن السلطان المستنصر بعد أن أكتسب الخبرة والحنكة السياسية وبدأ يسيطر على وزرائه وعلى جميع أجهزة الدولة فنجد أن الوزراء ينفذون أوامره وذلك بسبب قوة شخصيته وفرضها على جميع رجال دولته

(٥) أبن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٤٠٥، السلاوى: الاستقصا، ج ٣، ص ٨٩

(٦) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٨١، أبن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٧، الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٣.

شيئا أخضر^(١) ورأى الناس آية عظيمة في الزرع وأكل الناس القمح فريكا ثم عدم في سنبله فإذا حصد جمعت الأعمار ولم يوجد بها شيء فهلك البقر الذي أكل ذلك الزرع التالف وكان ذلك في جميع أفريقية^(٢) ونقصت الحاصلات كثيرا فاشتعلت الثورات في البلاد^(٣) وكان السلطان ووزرائه بعيدين عن الناس، فكان السلطان لا ينظر في عواقب الأمور فكان كثير اللهو وكان مغلوب على أمره، لدرجة أن العرب استولوا على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم وهو أول من كتب البلاد الغربية للعرب وزاد في العوائد وفرض الضرائب من أجل ملذاته فقلت المحابى وكثر الترف والإنفاق^(٤).

وتكررت هذه المجاعات والكوارث في عام ٦٧٧هـ واستمرت حتى عام ٦٩٠هـ حيث أثرت الرياح الشرقية المتتالية والقحط الشديد وتبع ذلك مجاعات وارتفعت الأسعار^(٥) وكان ذلك في عهد السلطان الحفصي أبى حفص عمر ابن زكرياء (٦٨٣هـ - ٦٩٤هـ / ١٢٨٤م - ١٢٩٥م)^(٦) وتكررت هذه المجاعات أيضا في عهد السلطان الحفصي أبى عبد الله محمد الثانى أبى عسيده

(١) الزركشى، المصدر السابق ص ٤٥، عبد الحق البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في

التعريف وصلحاء الريف، ت / سعيد أحمد أعراب، الرباط ١٩٨٢، ص ١٧٨.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٥، سامية مسعد: الحرب والطبيعة، ص ٢٠.

(٣) حامد زيدان: الأزمات الاقتصادية والأوبئة في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٦، ص

١٣، محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص ١٧٤.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٩، أبى الشعاع: المصدر السابق، ص ٧٦

(٥) أبى أبى زرع: الأنيس المطرب، ص ٤٠٨، ٤٠٩.

(٦) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧٠٩، الزركشى: المصدر السابق، ص ٥٠، ابن

الشعاع: المصدر السابق، ص ٧٥

(٦٩٤هـ - ٧٠٩هـ / ١٢٩٥م - ١٣٠٩م)^(١) وذلك في عام (٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) حيث كانت المجاعة شديدة والوباء عظيم ببلاد المغرب وإفريقية ومصر وهلك فيها خلق كثيرة، وبلغ القمح ١٠ دراهم للمد^(٢) والدقيق أواقي بدرهم وكثر الوباء بقابس^(٣) وهنا تفرض شخصيه السلطان الحفصي القوى نفسها على وزرائه على العكس من السلطان الضعيف المستسلم لوزرائه حيث نجد ارتفاع في الأسعار وتدهور في الزراعة أمام عيون ومشاهده من (أولئك) السلاطين الضعفاء والوزراء المستبدين^(٤) وبسبب ذلك أمر السلطان أبو عصيدة وزرائه الذين أطاعوا أوامره على الرغم من حداثة سنة أن يتركوا الأراضي^(٥) من أجل التغلب على المجاعات التي تكررت كثيرا في بلاد المغرب، فكان السلطان أبو عصيدة شديداً مع وزرائه ومن يحاول أن يستبد به

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧١٠، الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٣، ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٢) المد: بضم الميم والجمع أمداد، ومداد ومدوه في المكايل، مكيال اختلفت سعته باختلاف المكان والمذاهب، وباختلاف وحده القياس فهو على رأى الشافعى وأهل الحجاز، ورطل وثلاث الرطل بالعراقى البغدادى، وعلى رأى أبى حنيفة هو رطلان، وأمد بالمصرى رطل وسبع ثلث سبع الرطل، وهى أقل من الربع المصرى أى أقل من ربع الكيلة، والمد بالكيلو جرامات يساوى ٥٢٣١٢٥ كيلو جرام ولقد سمي المد مدا لأنه فى الأصل مليء كفى الإنسان. راجع محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية، دار الشروق ١٩٩٢م، ص ٥٢٣.

(٣) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص ١٦٤.

(٤) الونشريسى: المعيار، ج ٤، ص ١٦٤.

(٥) ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ٨٣.

فكان على الفور مكافأته السجن أو القتل^(١) وأن الوزير الأكبر ابن اللحياني استطاع بعض الشيء من الانفراد بتدبير شئون الدولة ولكن تحت سيطرة السلطان^(٢). واستمرت الطبيعة تلقى بغضبها على بلاد المغرب عامه وإفريقية بصفة خاصة، حيث عم البلاد وباء وجفاف أدى إلى المجاعة في أنحاء البلاد وتمركز هذا الوباء في منطقته برقة وطرابلس عام (٧٠٦هـ / ١٣٠٦م)^(٣) في عهد السلطان الحفصي أبى عصيدة نفسه حيث مات كثير من الرجال والنساء والأطفال ولم يجدوا شيئاً ليأكلوه سوى لحوم الحيات، وكان أكثر الناس موتاً هم الغرباء عن أهالي المدينة بسبب شدة الوباء، وتحرك من استطاع الفرار من المدينة خشية الموت^(٤) واستطاع الناس من حفر بئر ماء عذب سالم من الوباء يشربون منها ويستقون بهائمهم وزروعهم منها^(٥).

وكررت الطبيعة غضبها هذه المرة بالإمطار الغزيرة والسيول والريح عام (٧٢٣هـ - ١٣٢٣م) واستمر إلى عام (٧٢٤هـ - ١٣٢٤م)^(٦) في عهد السلطان الحفصي أبى يحيى ابن أبى بكر (٧١٨هـ - ٧٤٧هـ / ١٣١٨م -

(١) ابن خلدون: العبر، مج ١٢ ص ٧١٠، ٤١٢، المطوي: السلطنة، ص ٢٨٨.

(٢) المطوي: السلطنة، ص ٢٨٨.

(٣) التجاني: الرحلة، ص ١٧٩.

(٤) التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد أحمد): رحله التجاني (تونس - طرابلس) - (٧٠٦هـ -

٧٠٨هـ)، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ١٩٨٠م ص ١٧٩.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.

(٦) ابن القاضي (أحمد بن محمد أبى العافية المكناسى الفاسي): ذيل وفيات الأعيان المسمى درة

الحجال في أساء الرجال، تحقيق محمد الأحدي أبو النور، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة،

١٣٤٦ م^(١) واشتد الغلاء ووصل أقصاه واستمر ثلاث سنوات^(٢) ولكن هذا السلطان قد أمر وزراءه بطحن أربعة آلاف قفيز قمحا كل يوم، وألف تصنع من أجل الناس والرعية حيث ازدهرت تونس في عهده^(٣).

وبلغ غضب الطبيعة أشده عام (٧٤٦ هـ / ١٣٤٧ م) واستمر حتى (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م)، حيث اجتاح الوباء الأسود كل الأقاليم، وأصيبت البلاد بشدة وطالت مرارته وتأثيره^(٤) ومات عدد كبير من الناس يصل إلى ألف شخص يوميا^(٥) وحدث هناك تدهور عظيم في البلاد وتدهورت الزراعة، وظلت الأراضي الزراعية لا تجد من يزرعها ويقول أن تغرى بردى "

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص، ابن الشعاع: المصدر السابق ص ٨٧، الزركشي: المصدر السابق ص.

(٢) ابن القاضي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٤.

(٣) ابن الشعاع: المصدر السابق ص ٩١، وهنا نجد أنه على الرغم من أن السلطان الحفصي أبو على أبي بكر عاش في الفترات المضطربة للدولة الحفصية حيث عدم الاستقرار وكثرت الفتن والثورات ولكنه استطاع فعل كل ما يستطيع لكي يؤمن الناس في دولته.

(٤) ابن حجر العسقلاني: بذل الماعون في مقتل الطاعون، مخطوط مصور بالميكرو فيلم، دار الكتب المصرية، رقم ٢١٩٨، ورقه رقم ٦٩. راجع ابن الأحمر: نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، دراسة وتحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٧ م، ص ٣١٠، البلوى (خالد بن عيسى البلوي): تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق وتقديم: الحسن محمد السائح، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، (د.ت)، ج ١ ص ٣٤، ابن القاضي: جذوه الاقتباس، ج ١ ص ٣٠، المقرئ: نفح الطبيب، ج ٥، ص ٤٩٨.

(٥) ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ١٦٩، وكان لهذا الوباء أثرا كبيرا في فشل حروب السلطان أبي الحسن المريني حيث توفي عدد كبير من جيوشه وعلى رأسهم وزيره مأمور بن عمر الفودودي الذي توفي بسبب الوباء، راجع المسند ص ٣٦٤.

بقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها^(١) لكثرة الأموات من البشر والأغنام والماشية في جميع البلاد المغربية فسموه باسم الفصل الأكبر أو سنة الفناء^(٢) أو الوباء الأول^(٣) وبلغ الغلاء أشده حتى بيع قفير القمح بثمانية دنانير^(٤) ولم يفعل السلاطين الحفصيون أو وزرائهم أى شيء يذكر لان السلطة الحفصية كانت مفككة وإفريقية الحفصية تقع تحت النفوذ المريني بقيادة السلطان أبو الحسن المريني^(٥) ولم يوجد أحد لنجده الناس بل ظل الوباء يحصدهم ويقتلهم.

وارتفعت الأسعار في تونس عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م^(٦) في عهد السلطان الحفصي أبى إسحاق بن أبى يحيى أبى بكر ٧٥١هـ / ٧٧٠هـ / ١٣٥٠م -

(١) ابن تغر بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغر بردى الأتابكي): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٩، ج ١٠ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج ١٠ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) البرزلى: جامع، ج ٢ ص ٤٤٦، حيث توفي فيه الشيخ الفقيه أبو عبد الله ألقيس الرماح فقيه القيروان وكان عالما صالحا متعبدا زاهدا.

(٤) ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٥) لم تشر المصادر إلى دور الوزراء أو السلطان الحفصي لمساعدته الناس ويقول الكفيف الزرهوني:

- راجع الملعب: ص ١٥٧. وهنا نجد انحطاط وتدهور شديد في عملية الزراعة بسبب موت أعداد لا حصر لها من المزارعين واشتد تضرر الناس من هذا الوباء وقلت الأقوات واشتد الغلاء فانعكس ذلك بالطبع على جميع الأوضاع الاقتصادية الأخرى من صناعة وتجارة وبالتالي تلجأ السلطات الحاكمة لفرض الضرائب من أجل الاستمرار في الحياة المترفة بعيداً عن عامة الناس التى كان هدفها هى البحث عن الطعام من أجل مواصلة الحياة.

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ٩٥.

١٣٦٩م^(١) حيث ارتفعت أسعار الطعام في تونس حيث بلغ سعر قفيز القمح إلى ١١ درهما ذهبيا والشعير نصف ذلك^(٢) ولم يحرك السلطان المغلوب والمستبد عليه من وزيرة ابن تافراجين شيئا لأن الوزير ابن تافراجين استبد بالحكم وأمور البلاد ونظم واستخلاص رسوم الجباية، بالإضافة إلى تصديه للهجوم المريني على الملاك الدولة الحفصية بقياده السلطان المريني أبي عنان^(٣) وتكرر الوباء في عهد السلطان أبي حفص عام ٧٦٥هـ / إلى عام ٧٦٦هـ حيث وقع بتونس وباء عظيم^(٤) ومات خلق كثير من الناس ومعهم الوزير ابن تافراجين الشهير بالمستبد بالسلطان الحفصي آنذاك^(٥) وتكررت المجاعة في أفريقية الحفصية عام ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م في عهد السلطان أبي العباس أحمد الحفصي (٧٧٢هـ - ٧٩٦هـ / ١٣٧٠ / - ١٣٩٤م) ولكنها كانت

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص، الزركشي: المصدر السابق ص ٩٢، ابن أبي دينار: المصدر السابق.

(٢) ابن الشّاع: المصدر السابق، ص، الزركشي: المصدر السابق، ص

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٧، ج ١٣، ص ٥٩٨، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ١٧١، السلاوي: المصدر السابق ج ٣، ص ١٨٤، الزركشي: المصدر السابق، ص ٩٤، ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٥٧، أبو شامة: المرجع السابق ص ٢٠٢، إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، عرض لأحداث المغرب وتطوراتها في الميادين السياسية - الدينية - الاجتماعية - العمرانية، منذ ما قبل الاستلام إلى العصر الحاضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٩٣، ج ٢ ص ٤٥، ٤٠، المنوني: ورقات، ص ١٥.

(٤) البرزلي: جامع، ج ١، ص ٤٨٠.

(٥) ابن الشّاع: المصدر السابق، ص ١٠٥، ذكر ابن خلدون وفاته وكذلك الزركشي، ولكن لم يذكر سبب وفاته، راجع ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٨٥٥ - ٨٦٥، الزركشي: المصدر السابق، ص ١٠١

أشد وأعظم^(١) وتأثرت به جميع بلاد المغرب عامة والدولة الحفصية خاصة، مما أثر على كساد الحياة الاقتصادية وانعكس ذلك على الحياة السياسية للبلاد^(٢).

وقام السلطان أبو العباس أحمد ووزرائه وخاصة الوزير الحاجب أبو عبد الله بن تافراجين بإنشاء السبالة وجعلوها حبا من اجل انتفاع جميع الناس بها^(٣) ولكن مع ذلك تأثر الفلاحون بتلك الكوارث والمجاعة الشديدة حيث تركوا أراضيهم الزراعية عن طريق بيعها فحدث كثير من المشكلات لأن الأرض ربما لم تكن ملكا لهم لأنها قد تكون أمتاعا^(٤) وذلك بسبب تدهور أوضاعهم بسبب تخريب المحاصيل والأرض الزراعية^(٥) فتدهورت الزراعة عامة والمحاصيل خاصة وارتفعت الأسعار^(٦) واشتد الغلاء في أنحاء البلاد المغربية عامة ومنها البلاد الحفصية^(٧).

وهبت رياح السديد على برقة عام ٧٩٩ هـ حيث مات كثير من الناس، وانتقال عدد كبير منهم إلى الغرب^(٨) هربا من الطاعون والمجاعة وما صاحبهما

(١) السلاوي: الاستقصا، ج ٤، ص ٨٣، إبراهيم حركات: النشاط الاقتصادي

ص ٢٩٩، الحريري: تاريخ المغرب، ص ١٨٢

(٢) الحريري: تاريخ المغرب، ص ١٨٢.

(٣) ابن الشناع: المصدر السابق، ص ١١١، ١١٠

(٤) الوشرسي: المعيار، ج ٥، ص ٩٨، ٩٩، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٥) إبراهيم القادري: الإسلام السري، ص ٢١٤، ٢١٥.

(٦) إبراهيم حركات: النشاط الاقتصادي، ص ٢٩٩.

(٧) ابن تغرى بردي: النجوم الزهراء، ج ١١، ص ١٣٠.

(٨) البرزلي: جامع، ج ٢، ص ٤٨١ حيث سميت برياح الأسرع أو السويدار فكان الرجل يمشي

من ارتفاع في الأسعار^(١). وكان ذلك في عهد السلطان الحفصي أبى فارس عبد العزيز (٧٩٦هـ - ٨٣٧هـ / ١٣٩٤م - ١٤٣٤م) ووزيره الأمير محمد بن عبد العزيز وباقي وزرائه^(٢) الذين كانوا ينفذون أوامر سلطانهم العظيم دون تردد حيث كانوا دائما تحت طواعة السلطان الحفصي والذي يعد آخر سلاطين بنى حفص العظام، حيث استطاع هذا السلطان السيطرة على مقاليد الحكم وعلى وزرائه وجميع أنحاء دولته وعمل على توحيد الدولة الحفصية حيث عملوا على تأمين العباد وعمرت البلاد وجعل كثيرا من الأعباس لخدمة غير القادرين^(٣) وتكررت المجاعة والكوارث الطبيعية في عهد هذا السلطان العظيم حيث حدث وباء عظيم بتونس عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م^(٤) ثم اشتد الوباء بصورة اكبر في عام ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م حيث شمل تونس وجميع جهاتها ثم حدثت سيول عظيمة لدرجة أنها حملت أشجار الزيتون وألقتها في أملاك أخرى وألقت بالأخرى في وادي مجردة وبالتالي حدثت المجاعة وغلت الأسعار كما يقول ابن خلدون في ذلك أن المجاعة تحدث بسبب كثرة الثورات والاضطرابات والفتن، وكثرة الجبايات المفروضة على الناس مما يجعل الفلاحون يهجرون أراضيهم فتقل الأقوات وترتفع الأسعار وتحدث المجاعة وكانت المجاعة عام ٨٢٦هـ / ١٤١٣م في بلاد المغرب عامة شديدة وقاسية

ثم يسقط ميتا واشتد الغلا والجوع، راجع البرزلي، نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦١٦.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٢.

(٣) ابن الشماخ: الأدلة، ص ١١٥، ١١٤.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦١٧.

على البلاد وسكانها حيث خربت البلاد الكبرى وتمزقت وحدثها وانهارت الزراعة والنشاط الاقتصادي^(١) وقضت هذه المجاعة على الأخضر واليابس^(٢).

وعمل السلطان أبو فارس بن عبد العزيز ووزرائه على توفير أكبر قدر من التموين للمتضررين من المجاعات والكوارث وذلك أثناء حملاته العسكرية فكان يعمر الزوايا التي لجأ إليها أعداد كبيرة من المتضررين^(٣). وحدث وباء في تونس ونواحيها عام ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م^(٤)، وذلك في عهد السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (٨٣٩هـ - ٨٩٢هـ / ١٤٣٥م - ١٤٨٦م)^(٥).

حيث توفي كثير من الناس ومات على أثره الشيخ الفقيه أبو حفص عمر القلجاني^(٦) وحدثت على أثره مجاعة عمت تونس ونواحيها^(٧) وتكررت الكوارث الطبيعية في عهد هذا السلطان حيث وقع الوباء أيضا بتونس في

(١) ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي): بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب مقدمته، محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٢، ج ٢، ص ١٣.

(٢) ابن القاضي، جذوه الاقتباس، ق ٢، ص ٣٤٨، دره الحجال، ج ٣، ص ٢٣٩، الزركلي، الإعلام، م ٤، ص ٣٠٦، ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥، ص ٢٢٠.

(٣) ابن ناجي: معالم الإيوان، ج ٣، ص ٢٠٩، ج ٤، ص ٩٩.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٤١.

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص، ابن القنفذ: الفارسية، ص، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص، الزركشي: المصدر السابق، ص.

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٤١.

(٧) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٦١٧.

جمادى الأولى عام ٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م فانتقل السلطان أبو عمرو عثمان من الحفصية إلى سانيه بارود ثم انتقل منها إلى سانيه توزر خوفا من الفناء أثناء الوباء^(١) ومات الكثير من العامة وخاصة الفلاحين الذين يموتون بسبب تلك الأوبئة^(٢) وحدث ريح شديدة في رجب، فقلعت كثيرا من شجر الغابة^(٣) ثم وقع في أواسط شوال مطر ببرد قدر يبضه الدجاج وأكبر من ذلك^(٤)، وتكررت المجاعة مرة أخرى في عهد السلطان الحفصي أبي عمرو وذلك عام ٨٦٢ هـ / ١٤٥٥ م حيث اشتدت المجاعات وارتفاع الأسعار، واشتد غلاء الطعام فبلغ فقير القمح أربعة دراهم ذهباً والشعير على الشطر من ذلك، فشكى الناس للسلطان ووزرائه قله الطعام وشدة الغلاء فأمر السلطان ووزرائه بأن يخرجوا من المخزن كل يوم ما يصنع منه ألف خبزه وتفرق بتونس بباب يتتجنى، فقاموا بتفريقها في ٣ ربيع الثاني واستمر إلى رجب حتى كثر الطعام الجديد ورخص ثمنه^(٥).

وتكررت المجاعات والأوبئة في عهد السلطان أبي عمرو عثمان وذلك لطول فترة حكمه حيث حدث طاعون بالمغرب الأوسط عام ٨٧١ هـ^(٦) واستمر إلى عام ٨٧٣ هـ ثم تكرر مره أخرى وارتفع أثره على البلاد التونسية،

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٤٩ - ١٥٠، الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ٢٨٠، ج ٥، ص ٢٣٦.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٦) ابن مريم: البستان، ص ٢٢٤.

فبلغ عدد الموتى حوالى ألف شخص يومياً^(١) وكان الفلاحون هم الأكثر ضرراً في أوقات المجاعة على الرغم من عملهم بالزراعة فيتركون الأراضي، ولا يجدون ما يأكلونه وبالتالي يترك البادية وينتقل إلى الحضر^(٢) من أجل الحياة والعيش ويلجأ إلى التسلف من المتاجر بشروط مجحفة، حيث نجد الفلاحين في وضعية فقيرة دائماً^(٣) على الرغم من سعيهم الدائم للاتصال بعضهم البعض بسبب قرب القرى من بعضها البعض ليشعروا بالأمن ويشجعون بعضهم على الاستقرار وتخفيف الشعور بالخوف في ظل الظروف السياسية من صراعات وفتن والظروف الطبيعية من أوبئة ومجاعات وبرد وسيول^(٤).

وخلاصة القول نجد أن السلاطين الأقوياء ووزراءهم عملوا على قدر المستطاع من أجل تكوين الأماكن التي تساعد المتضررين من المجاعات والكوارث الطبيعية على العكس من الوزراء المستبدين بالحكم وسلاطين ضعاف لا يحركون ساكناً، فكان هدفهم الأول الاستمرار في السلطة وجمع واكتناز الأموال دون النظر إلى عامة الناس، فأثرت الكوارث الطبيعية على وضعية الفلاحين الذين هجروا أراضيهم وقراهم مما أدى إلى بوار الأراضي وقلة المحاصيل فانعكس ذلك على التجارة والصناعة التي تأثرت تأثراً عظيماً

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج ٧، ص ٦٢، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٦١، إبراهيم القادري: الإسلام السري، ص ٢١٥٠، ٢١٤.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ١٠٠، البرزلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٠.

(٤) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ترجمه: عبد العزيز سالدم، مراجعه لطفى

عبد البديع، مكتبة نهضة مصر، القاهرة (د - ت) ص ٢٦٢

بذلك، واشتد وانتشر الخوف والفرع في البلاد وذاعت عمليات السلب والنهب في عهد السلاطين الضعاف والوزراء المستبدين، إبان فترات الضعف والتدهور، على العكس من السلاطين الأقوياء ووزرائهم الذين سعوا إلى تأمين البلاد والناس، وتوفير الطعام لأكبر عدد منهم بالإضافة إلى الملابس والمشرب حتى يستطيعوا التغلب على المجاعات والأوبئة.

دور الوزراء في الحرف والصناعات

تعتبر الحرف والصناعات من أهم مظاهر النشاط الاقتصادي في المجتمع الإسلامي، ولذلك أولاهها المفكرون المسلمون جانبا من اهتمامهم وعنايتهم، وحاولوا تصنيفها وتباين أنواعها وفق أسس متعددة ومختلفة^(١) ويعتمد السكان في الدول الحفصية على أهم الأنشطة المتعلقة بالحرف والصناعات لسد احتياجاتهم^(٢) وكانت إفريقية بلدا صناعيا طوال العصور الوسطى^(٣). حيث تعددت الصناعات وازدهرت بسبب وفرة مقومات الصناعة فانتعشت الحياة الاقتصادية بسبب ازدياد الطلب على الصناعات التونسية، فلجأ الصناع^(*) أيضا إلى شراء منتجات الفلاحين من أجل تكوين الثروات، وبالتالي وصلت الصناعات إلى أعلى مستوى من البراعة والتأنق مما أدى إلى العيش

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، مج ١، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٧، ص ٢٨٧، ابن خلدون: المقدمة، ج، ص.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٤٠، محمد سويسى: المرجع السابق، ص ٦٨، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٤٦.

(٣) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع الهجري وفي القرن الثامن الهجري، منشورات الجامعة الإسلامية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، تونس ١٩٧٦، ص ٤٧، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٤٠.

(*) عرفت بلاد إفريقية مثلها مثل باقي الدول المعاصرة لها ثلاث أصناف للصانع فهناك الصانع الخاص الذي يمتلك الآلات والصانع المشترك هو ليس بأجير عند رب عمله، وإنما يجلس لخدمه كل من يقدم له حاجته وأخيرا الصانع المتجول مثل صانع الأدوات الخشبية والحديدية وكانت حياتهم صعبة، راجع ابن رحال: كشف القناع، ص ٧٦، ٧٣، إبراهيم القادري: الإسلام السري، ص ٢١٧-٢١٨.

حياة مترفة تتطلب الكثير من الصناعات الجديدة^(١).

وقد نظم السلاطين الحفصيون الأقوياء الصناعة في إفريقية تنظيماً دقيقاً لمراقبتها وذلك في عهد السلاطين الأقوياء، حيث حصروا أهل كل صناعة في سوق واحد خاص بهذه الصناعة، يارس الصناع فيها عملهم، وهي عبارة عن دكاكين ينشأها الوزراء بأمر من السلطان الحفصي القوى على نفقة الدولة في مكان مربع الشكل، يحيط به سور من كل الجهات ويدخل إليه من باب واحد^(٢) وكان الأهالي يقومون ببناء هذه الدكاكين بجوار منازلهم على حسابهم الخاص^(٣).

وفي عهد السلاطين الأقوياء العظام تنعم البلاد بالأمن والاستقرار والرخاء ويقضون على مظاهر الفوضى في البلاد، أثناء فترات سيطرة الوزراء وضعف السلاطين، حيث يقوم السلطان الحفصي القوى ووزرائه المنفذون لأوامره بتأمين العباد والطرق^(٤) ومثال على ذلك في عهد السلطان الحفصي أبي ذكريا الذي حقق السلم والأمان بتوفير الازدهار الاقتصادي، فانتعشت الصناعة والزراعة بقوه وبالتالي ازدهرت التجارة^(٥) وعندما توفي في ٢٩ جمادى الآخر عام ٦٤٧ هـ / ٩

(١) ابن خلدون: المقدمة، ج، ص، محمد سويسى: أنماط العمران، ص ٢٢ - ٢٣، ٣٣.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات، ج ٢، ص ٧٢٠ نلاحظ هنا أن السلطان الحفصي القوى المسيطر على وزرائه يصدر أوامره بعملية الإنشاء وكان على الوزراء التنفيذ والمتابعة حيث لم تذكر المصادر مباشرة حركة ودور الوزير ولكن يمكن القول بأن الوزير هو المسئول عن عملية الإنشاء، ولكثرة الأوامر الخيرية للسلاطين في بداية عهدهم عند توليهم السلطة من أجل اكتساب رضا الناس والعامه.

(٣) أبى القنفذ: الفارسية، ص ١٥٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٢.

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٥٤، يوسف فهمى الجزايرلى، الجزائر أرض البطولة،

أكتوبر عام ١٢٤٩ م، ترك خزينة تزخر بالأموال^(١).

وفي فترات نفوذ الوزراء واستبدادهم بالسلطين الضعاف تنعدم حالة الأمن والاستقرار بسبب سعى الوزراء إلى جمع الأموال بالطرق المشروعة والغير مشروعة^(٢) حيث ضعفت هيبة الدولة، وكثرت هجمات الأعراب على المدن، وبالتالي تدهورت الصناعة وساء حال الصناع^(٣). والصناعة مثل الزراعة والصناع مثل الزراعة، فإذا كان المزارع هو أساس النشاط الزراعي، فيعتبر الصانع هو أساس الإنتاج الحرفي، فهو القائم لبيع صنعه سواء كان بالسوق أو الدار، فإذا تخصص الصانع في مهنة ما، يجعله العنصر المميز لها، دون الاهتمام بمكان العمل، وهو يتوسط هرم المنتجين بين المعلم المالك لوسائل الإنتاج والأجير الوقتي، والذي كان أقل مكانة منه^(٤)، وكان للصانع وخبراتهم دور كبير في ازدهار الصناعات، ولم يقتصر لقب الصناع على الرجال فحسب بل كانت للمرأة دور هام كصانعه^(٥) وبالتالي شارك جميع أفراد الأسرة رب الأسرة الصانع في صنعه، ومن هنا أصبحت الصنعة متوارثة من جيل إلى آخر داخل الأسرة الواحدة^(٦) بل ربما تتأثر باقي الأحياء الأخرى الموجودة

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٦٧، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٣.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٩، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٤ - ١١٦، ١٠٥.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٥، ١١٦.

(٤) البرازلي: ج ٣، ص ٤٩٨.

(٥) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٤٧.

(٦) عثمان الكعاك، العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ، تونس، ١٩٧٢، ص ١٨٨، عز الدين احمد، النشاط الاقتصادي، عز الدين أحمد موسى: دراسات في تاريخ المغرب

بالمدينة بصناعة معينة يتقنها الجميع. ومعها انتشرت الدكاكين لخدمة هذه الصناعة فأخذت على هذه الصناعة والآلات والمواد الأولية اللازمة للصناعة^(١) وبالتالي لابد من توفير الأمن والأمان من أجل ازدهار هذه الصناعة. وهذا الأمن لا يتوفر إلا مع وجود سلطان قوى وجهاز إدارى مطيع يقوده وزير تنفيذ وليس وزير مستبد يرهق الصناع بالضرائب وغيرها من الالتزامات.

وكانت للحروب المستمرة في عهد فترات نفوذ الوزراء واستبدادهم وضعف السلاطين دور كبير في مقتل الكثير من الأيدي العاملة الماهرة، حيث يتدهور المجال الصناعى بوجه خاص والاقتصاد الحفصى بوجه عام، حيث الحروب سواء كانت داخلية ضد الثورات والخارجين على الدولة أو الحروب الخارجية ضد القوى النصرانية والدول المجاورة من بنى مرين في المغرب الأقصى وبنى عبد الواد في المغرب الأوسط أثرها المدمر على الحياة السياسية والاقتصادية الأفريقية الحفصية^(٢)

وما أكثر تلك الحروب والفتن عندما يستبد الوزراء بالسلاطين وتكثر الخلافات بين الوزراء وبعضهم البعض حيث دمرت مدن بأكملها وحملت بين أطلالها صناعات وحرفيين ومزارعين بأعداد لا تحصى، فأدى تدهور المدن والقرى أيضا إلى هلاك العمران وقلقله الاستقرار فأثر ذلك على الحياة الاقتصادية فيقول ابن خلدون " أن تراجع العمران وخفه السكان بالمدن

الإسلامي، دار الشروق، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص ٢١٦

(١) أحمد بن عامر، الدولة الحفصية، ص ٢٧

(٢) إبراهيم حركات: النشاط الاقتصادي الإسلامى في العصر الوسيط، مطابع أفريقيا الشرق،

الدار البيضاء، المغرب، (د.ت)، ص ٢٣٨.

يؤدي لقلّة الصناع وتستمر الصناعات في التناقص إلى أن تضمحل^(١) وتضطرب الحياة الاقتصادية وترتفع الأسعار^(٢)، وبالتالي تتدهور حياة الصناع والحرفيين فتكسد الصناعة في ظل هذه الظروف السياسية المنحدرة وخاصة في الطور الثاني للدولة الحفصية حيث مؤامرات الوزراء التي أدت إلى انقسام الدولة إلى ثلاثة إمارات هي تونس، وبجاية، وقسطنطينية ونزول المسيحيين لجزيرة جربة عام ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م في عهد السلطان أبي حفص^(٣).

بالإضافة إلى محاولات بني مرين لاحتلال إفريقية عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٦م^(٤) بسبب أيضا الوزير الحاجب ابن تافراجين الذي ساعد أبا حفص عمر بن أبي بكر للاستيلاء على السلطة من أخيه أبي عباس وأخذ البيعة العامة والخاصة^(٥) فأدى كل ذلك إلى الانهيار الاقتصادي عامة والصناعة والحرف بصفه خاصة. كل هذه المشكلات والأوضاع المضطربة ساهمت بالتأكيد وأدت إلى انحطاط مكانه الصناع وتدهور صناعتهم وحرفهم بالإضافة إلى تنازعهم فيما بينهم، وعرضت تلك النوازل على الفقهاء الذين سعوا بكل الوسائل الشرعية من خلال الكتاب والسنة من أجل حلها وفك

(١) المقدمة، ج ٢، ص ٨٦١ - ٨٦٢.

(٢) ابن أبي دينار: المؤنس، ص ١٤٩، الزركشي: المصدر السابق، ص ٩٥.

(٣) التجاني: الرحلة، ص ١٢٦.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص ٨٠، ابن القنفذ: الفارسية: ص ١٧٠، عبد الهادي التازي:

التاريخ الدبلوماسي، ج ٧، ص ٢٨، الأنصاري: فهرست الرصاع، ج ٢٨، الهامش (٥)،

مبارك الميل: تاريخ الجزائر، ص ٧٤٩.

الاشتباك بين المتنازعين^(١) وازدادت هذه المشاكل والخلافات أثناء فترات حكم الوزراء المستبدين والسلاطين الضعفاء لدرجه حدوث نزاعات بين الصناع والزبائن^(٢) ويقول البرزلي^(٣) " إن الصناع وأهل الحرف شأنهم في ذلك شأن أهل القرى والعلماء من اشد الناس تنافسا وتحاسدا.

وعلى الرغم من الحالة المتردية للصناع والصناعات في فترات نفوذ الوزراء ولكن الصناعات ازدهرت في عهد السلاطين الأقوياء بمساعدة وزرائهم المخلصين المنفذين لأوامرهم والقائمين على خدمه مصالح السلطة الحفصية، حيث عرفت الصناعات والحرف ازدهارا كبيرا وبلغت شهرتها العظيمة في جميع الأسواق الأوربية^(٤)

واستطاعت الدولة الحفصية بفضل السلاطين الأقوياء ومساعدته وزرائهم لهم من أجل استقرار البلاد وتوفير الهدوء والأمن والحفاظ عليه ساعد على ازدهار وانتعاش الصناعة أكثر من البلاد الأوربية المعاصرة لها التي لم تستطع أن تصل إلى هذا التقدم والرقى في الصناعات^(٥). وعندما نجد سيطرة الوزراء على مقاليد الحكم وضعف السلاطين تزداد معهم الخلافات التي دائما ما كانت

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٢٤١، البرازلي، جامع، ج ٣، ص ١٩٧، ١٩٦، ٥٤٥، ٥٤٤، ص ٥٦٠، ٥٦١.

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٣) جامع، ج ٢، ص ٣٩٣.

(٤) Poncet (j): Prosperite et de cadence ifriquenes in chaires de ta tunisie I ١٩٦١. pp٢٢١ "٢٤٣

(٥) Mas latrie: (L.D.E): apercu des relations commerciales de l, italie septentrionle avec l,algerie au m. a. Paris , ١٨٤٥ p ١٩.

تنشب بين أصحاب الأموال والصناع^(١) مع انحطاط شديد للصناعات وطائفة الصناع والحرفيين وغياب دور المحتسب وقله نشاطه ومراقبته للصناع مما أدى إلى تخلى الصناع والحرفيون عن أمانتهم والسعى إلى اكتساب الرزق بشتى الطرق حلال أو حرام^(٢) مع غياب نظام النقابات التي تحمى حقوق الصناع والحرفيين من السلطة وأصحاب العمل والمال وبالتالي كانت طائفة العمال والحرفيون ضعيفة لا ترتقى إلى نقابات قوية^(٣) فلجأ الصناع والحرفيون إلى الكذب والتحايل في حالات الحوادث مثل الحريق وغيرها من أجل أخذ تعويض حتى في حالة عدم حدوث تلف بالبضاعة^(٤).

ومع ازدياد نفوذ الوزراء وتحكمهم في شئون الخاصة والعامة فرضوا الضرائب الباهظة على الصناع وصناعتهم، فتدهورت الصناعة وساءت حالة الصناع وازداد فقرهم^(٥) ولم تركهم الطبيعة لظلم وتعسف الوزراء المستبدين وجامعى الضرائب القاسيين عليهم، بل أثرت الكوارث الطبيعية على الصناع والصناعات ولم يجدوا من ينقذهم من هذه الكوارث سوى السلاطين

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ٢٢١.

(٢) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٦٣.

(٣) محمود إسماعيل: الإقطاع في العالم الإسلامي. من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العشر الهجري. بين الجدل النظرى والواقع التاريخي، حوليات كلية الآداب تصدر عن مجلس النشر العلمى، جامعة الكويت، الحولية الحادى عشر، الرسالة التاسعة والستون، ١٩٨٩، ١٩٩٠، ص ١٦، ١٧٧.

(٤) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ٣٢٨.

(٥) إبراهيم بركات: النشاط الاقتصادى، ص ٢٣٩، برنشفيك: المرجع السابق، ص ١١٦.

الأقوياء^(١) فتعطلت الصناعات وتراجعت في فترات نفوذ الوزراء بسبب أوضاع البلاد السيئة^(٢). وكثرت ثورات الأعراب ضد السلاطين الضعفاء وزيادة نفوذهم وفسادهم في البلاد وخاصة في الطور الثاني للدولة الحفصية^(٣) واشتدت الحكومة الحفصية في فرض الضرائب الباهظة على الصناع وأصحاب المهن لمواجهة الثورات والغزو الخارجي حتى جاء السلطان أبو فارس عبد العزيز التقى الورع ووزرائه العادلون وأسقطوا كل هذه الضرائب عن كاهل الصناع^(٤).

وعلى العكس في فترات قوة الدولة وخاصة في بداية الطور الأول لقيام الدولة والطور الثالث حيث كان أهل صناعة سوق واحد مثل سوق القمارين، والسراجين، واللباغين، والصباغين، والعطارين^(٥) وكان على كل رأس صناعة أمين أو عريف* من أجل تنظيم الصناع^(٦) وكان يعين من قبل المحتسب أو

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٢٣٤، سامية سعد، الحرب والطبقة، ص ٣-٤٠، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٥٦، ص ٥٦، رشاش سالم: المرجع السابق، ص، محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص.

(٢) رشاش سالم: المرجع السابق، ص ٢٥٦

(٣) التجاني، الرحلة، ص

(٤) ألترجماني (أبو عبد الله الترجماني الأندلسي): تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تقديم وتحقيق وتعليق: محمود على حمادة، دار المعارف، ١٩٨٢، ط ٣، ص ١٤.

(٥) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٤٧، منى سالم عبد العزيز: المرجع السابق، ص ٩٣

(*) ترجع خطة العريف إلى الفترة الإسلامية التأسيسية وكانت مرتبطة بالتنظيم العسكري والاجتماعي وعرفت في المغرب الإسلامي منذ القرن السادس الهجري، راجع البرزلي، ج ٢، ص ١، ابن مرزوق، المسند، ص ١٩٤، pp , ti , Goitein: A Mediterranean society ,

القاضي لمراقبه الصناع ومراقبة الإنتاج وجودته ومنع تسرب الغش للصناعات^(١) ولم يتهرب الصناع وأصحاب الحرف من عمال الجباية والسلطة المنفذة لها وهو وزير الاشغال الذى اختار رجاله على أسس دينيه ومن يتصف بالعدل والورع فكان كل صانع يدفع ما عليه من أموال دون تأخير^(٢) وبالتالي ازدهرت الصناعات في الدولة الحفصية ومن أهم هذه الصناعات:

صناعة الغزل والنسيج:

ازدهرت صناعة الغزل والنسيج في الطور الأول والثالث للدولة الحفصية واشتهرت مدن بأكملها بالصناعات الكتانية والقطنية حيث انتشرت مراكز صناعة الكتان بالمدن الساحلية مثل بونه وبجايه، وعرفت مدينة تونس بصناعة القماش الأفريقى الذى يتميز بنعومته وجودته لأنه يصنع من الكتان والقطن معا أو من الكتان فقط، ولذلك كانت اسعاره مرتفعة^(٣) بالإضافة إلى شدة إتقان النساء لهذا الغزل^(٤) وفاق أهل تونس غيرهم من البلاد في أغطيته الرأس^(٥). ولكثرة وجود الكتان والقطن* بمدينة بجايه وقسطنطينية قامت

(١) البرزلى، جامع، ج، ص، رسالة ابن عبدون، ص ٢٤

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: ورقات، ج ٢، ص ٧٢، ٧٣

(٣) العمرى: وصف افريقية، ص ٧، ٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٤١، محمد

حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٦٨، عبد العزيز الدولاتى: مدينة تونس في العهد

الحفصي، تعريب محمد الشامي، عبد العزيز الدولاتى، دار السراس للنشر، ط١، تونس،

١٩٨١، المرجع السابق، ص ٦٨

(٤) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٤٤٦

(٥) الصفا قصي: نزهة النظار، ص ٣٥، منى سيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٩٩

(*) أصله من الشرق الاقصى وانتشر في المغرب الإسلامى خلال العصر الأوسط وصناعته

صناعة الأقمشة الكتانية، فكانت خشنة غليظة^(١) وكانت مدينة سوسة من أهم مراكز صناعة الكتان بإفريقية^(٢) فكانت تنمو النباتات في الأحواز المنتشرة بين الحمامات ومدينة سوسة، حيث توجد الآبار اللازمة لنفع الكتان ثم يرسل إلى المصانع بسوسة من أجل تبيضه وتصنيعه، وحسن غزله وارتفاع جودته وبيع المثقال منه بمثقالين من الذهب^(٣) كما عرفت مدينة سوسة بالعمائم السوسية^(٤) وكانت تدل العمامة حسب طريقة وضعها على وظيفة الشخص ومنزلته الاجتماعية وأصله.

كما قام سكان قفصة توزر بزراعة الكتان وبلاد الجريد ولكن بكميات قليلة^(٥) لا تقارن بتونس أو سوسة في عهد السلاطين الأقوياء ومساعدة وزرائهم ولكن في عهد نفوذ الوزراء وهجوم الأعراب على المزارع، وبث الرعب في نفوس سكان المدينة بالإضافة إلى جور السلطة الحفصية المثلة في

وتحويله تشبه صناعة الكتان ولكنه أقل جودة أكثر صلابة وكان يستعمل لصناعة الحبال وشباك الصيادين والورق والثياب راجع ابن حوقل صورة الأرض، ص، الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٢٢ - ٤٢٣، الإدريسي: نزهة المشتاق، ص.

(١) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٢٢، ٤٧٤، محمد حسن، المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٧٦.

(٢) الاستقصا، ص، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٧٦، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٣) التجاني: الرحلة، ص، الحميري: الروض المعطار، ص.

(٤) محمد حسن، المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٧٦، عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٥) ابن السعيد: بسطة الأرض، ص ٦٣، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٤١.

الوزير المستبد، أدى إلى هجرة السكان إلى مناطق أخرى^(١) وبالتالي تدهورت زراعة الكتان والصناعات القائمة عليه^(٢)، على العكس من عهد السلاطين الأقوياء الذين يعملون على انتعاش صناعة المنسوجات الكتانية وتصديرها إلى الخارج وخاصة بلاد المغرب الأقصى^(٣).

انتشرت زراعة القطن في واحة قفصه وبلاد الجريد وقرب مدينة تونس^(٤) وقد خصصت السلطة الحفصية سوقا للقطانين منذ القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي بمدينة تونس شمال جامع الزيتونة وتولى الأمين القطن مهمة سير هذه المهنة^(٥) ولم تصنع الأنسجة القطنية من القطن الخالص ولكنها خلطت بخيط آخر من الكتان أو الحرير، ونجد أنسجة بتونس مصنوعة من القطن والكتان، وكان القماش الذي يصنع أيضا من القطن والحرير معا وأطلق عليه القماش السفساري^(٦).

ومع ذلك لم تزدهر المنسوجات القطنية ازدهار المنسوجات الأخرى بسبب قلة زراعة القطن في إفريقية وقلت كمية الإنتاج^(٧). ولم تحظ صناعة

(١) منى سيد: المرجع السابق، ص ١٠٠

(٢) محمد سويسبي: أنباط العمران البشري بأفريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصي، مركز النشر الجامعي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس ٢٠٠١، ص ٢٢، ٢٣

(٣) الدولاتلي: المرجع السابق، ص ٦٨

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص، التنبكتي: تحفة الألباب، ص ١١٩

(٥) محمد حسن المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٧٦

(٦) القلقشندی: صبح الاعشى، ج ٥، ص ١٠٢، ١٤٢، عبد العزيز الدولاتلي، المرجع السابق،

ص ٦٩

(٧) منى سيد: المرجع السابق، ص ١٠١

المنسوجات الحريرية بنفس شهادة الصناعات الصوفية أو الكتانية وكانت مدينة قابس هي رائدة الصناعات الحريرية بسبب وجود زراعة أشجار التوت، فأصبحت البيئة الطبيعية المناسبة لدودة القز المنتجة لخيوط الحرير التي تعتبر واحدة من أطيب وارق أصناف الحرير^(١).

وفي فترات نفوذ الوزراء واستبدادهم بالسلطة وانتشرت الحرب والمنازعات والخوف والفرع بين الناس توقفت صناعة الحرير في هذه المدينة حتى الطور الثالث للدولة في عهد سلاطينها الأقوياء والوزراء المخلصين فأصبحت زراعة شجر التوت في مدينة تستور على نهر مجرده عن طريق جالية أندلسية حيث صناعة الحرير فيها حيث قاموا بنسجه وتطويره واكتسب حريرها شهرة كبيرة سواء كان حريرا خالصا أو مخلوطا بالصوف^(٢).

ونجد السلطان المستنصر يعطى اهتماما كبيرا لمصنع النسيج عندما أمر وزراءه ببناء مصانع للنسيج وخاصة الأنسجة الحريرية في فندق الحلة سوق القماش وفندق الهناء وفندق باب السوقية^(٣) وقام الصناع بصناعة ثياب رفيعة ملوكية* اشتهرت بها مدينة صفاقس^(٤) كان يباع الثوب الواحد منها بمائتي

(١) مجهول: الاستبصار، ص ١١٣، عبد العزيز العلوي: صناعة النسيج في المغرب الوسيط، ص ٥٩

(٢) عثمان الكعاك: الحضارة العربية، ص ٧٧

(٣) الدولاتلي: المرجع السابق، ص ٦٨

* فإن هذا النوع من النسيج يستخرج من حيوان مائي ينمو على حجارة في قاع البحر المتوسط على هيئة كرائم تشبه البصل بأعناق في أعلاها، فتخرج هذه الكرائم وتنتشر في الشمس، فتصنع منها الملابس راجع القلقشندي، صبح الأعشى، ج، ص

(٤) التجاني: المصدر السابق، ص

دينار بسبب ندرتها لذلك شدد السلاطين الأقوياء على عدم تصديرها للخارج^(١) وبلغت صناعة المنسوجات الحفصية شهرة واسعة في كل الأسواق الشرقية^(٢) والأوربية^(٣).

ونجد على العكس في فترات نفوذ الوزراء حيث تدهورت صناعة المنسوجات وقل التصدير وانعدم الأمن والأمان وتأثر الصناع بسوء الأحوال السياسية في ظل جو الفتن والثورات بين القوى المتنازعة من الوزراء والقبائل أو الوزراء ورجال السلطة وبالتالي انهارت صناعة المنسوجات حيث سيطر الوزراء ومساعدتهم على الدكاكين والفنادق المخصصة للصناعة ورفعوا أسعار هذه الصناعات ونافسوا الصناع والحرفيين وأجبروهم أثناء فترات سيطرتهم على إخلاء وهجره أماكنهم من الدكاكين والفنادق^(٤).

خلاصة القول نجد أن صناعة المنسوجات بجميع أنواعها كانت مزدهرة ومنتعشة ومتطورة أثناء فترات الحكام الأقوياء والوزراء المنفذين لأوامر سلطانهم دون تردد حيث الأمن والأمان وجميع وسائل الصناعات والحرف متطورة، على العكس من الوزراء المستبدين وانعدام الأمن والأمان وسيطرتهم على أموال الدولة، سعى الوزراء ومساعدوهم إلى جمع الأموال بشتى الطرق الشرعية والغير الشرعية.

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٥، ص

(٢) العمرى: المصدر السابق، ص

(٣) Poncet: op.cit., P. p ٢٣٩

(٤) البرزلى: فتاوى البرزلى، ج ٢، ص، ج ١، ص ٤٧٧، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١،

صناعة الزيوت:

ازدهرت صناعة الزيوت في بلاد إفريقية في العهد الحفصي وخاصة عهد السلاطين الأقوياء حيث استطاع السلطان أبو زكرياء يحيى الحفصي ووزرائه من العمل على أحياء زراعة الزيوت وأمر وزراءه بتشجيع المزارعين بالقرى المجاورة لقابس على الاهتمام بزراعته فبلغت الزراعة في قابس أوجها وبالتالي ازدهرت معها صناعة عصر الزيت^(١) على العكس من مدينة صفاقس التي كانت أهم مراكز عصر الزيتون في إفريقية والأشهر في إنتاجه وبلغ زيتها شهرته في البلاد الأوربية فقد كانت تحمل السفن إلى هناك^(٢).

ولكن في فترات نفوذ الوزراء على مقاليد الحكم وضعف السلاطين انهارت صناعة الزيوت بصفاقس^(٣) حيث قلة سيطرة السلطة المركزية على البلاد بسبب الخلافات والصراع على الحكم من الوزراء والسلاطين الضعاف وسيطر الأعراب على مناطق زراعة الزيوت واقتلعوا أشجاره وتدهورت صناعته بهذه المنطقة^(٤) واختلفت نوعيه استخدام الزيوت حسب قوة وضعف السلطان الحفصي ومدى سيطرته على وزرائه أو مدى سيطرة الوزراء على أمور الدولة حيث قام سكان تونس في القرن التاسع الهجري الحادي عشر الميلادي باستعمال نوع من الزيت الرفيع يسمى الزيت المعصرى بينما ينتج الساحل زيتا

(١) التجاني: الرحلة، ص ١١٩، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ١، ص ٢٧٩، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٢٨.

(٢) مجهول: الاستبصار، ص ١١٦ - ١٧٧.

(٣) التجاني: الرحلة، ص ٦٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٦٨.

اقل جوده يعرف بضرب الماء.^(١)

وفي نهاية الدولة الحفصية انهارت صناعة الزيوت في قابس وغيرها من المدن بسبب ضعف السلاطين والتنافس على الحكم وسيطرة الوزراء على أمور الحكم وأرهب العرب والسلطان أهلها بالإتاوات^(٢) ومع قوة الدولة وسلطانها انتشرت معها معاصر الزيت، وخاصة في مدينة بجاية^(٣) ولكن قفصه كان زيتها جميل اللون وطيب المذاق وكانت جبال غريان بالقرب من طرابلس تنتج كميات كبيرة من زيت الزيتون والذي كان يصدر إلى الإسكندرية والمدن المجاورة لها^(٤) وكانت صناعة زيت الزيتون قائمة في مدينة سوسة^(٥) وكذلك في مدينة جربة^(٦)، أو على العكس كانت عملية التدهور والانحيار لمصانع الزيتون في هذه المدن، حيث سيطرة الوزراء على السلاطين ومقاليد الحكم وبالتالي لم يجد الصناع من يحميهم ويحمى صناعته من تلك الحروب والفتن التي قتل فيها أعداد كبيرة من الصناع وتدهور العمران قد أثر على الناحية

(١) الدولاتلى: المرجع السابق، ص ٧٠ وعن طريق عصر الزيتون في عهد الحفصى ومناطق زراعته، راجع: برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٢٠-٢٢١، ص ٢٢٧-٢٢٨، الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٧٩، لمياء محمد سالم: بعض ملامح أزمة إفريقية الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام، مركز الجهاد الليبي للدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط ١، ١٩٩٩، ص ٢٦٧، التجاني: الرحلة، ص ١٢٢.

(٢) الوزان: وصف أفريقيا، ٤٦٥

(٣) الصفاقسى: نزهة النظار، ص ٤٣

(٤) الوزان: المصدر السابق، ص ٤٧٩، ٥١٥

(٥) الصفاقسى: نزهة القطار، ص ٤٢

(٦) التجاني: المصدر السابق، ص ١٢٢

الاقتصادية وخاصة الصناعة والزراعة^(١).

صناعة الخمر:

انتشرت صناعة الخمر والنبذ في الدولة الحفصية، وكانت هناك مدن إفريقية تنتجها وخاصة التي تنتشر فيها زراعة العنب، ولكن كان القائمون على صناعتها وبيعها النصارى^(٢) واليهود^(٣) الذين استوطنوا عدة مدن في إفريقية منها بجاية وبونه وتونس وطرابلس وذلك لتحريم القرآن الكريم تصنيعها وبيعها، ولم يكتفوا بذلك بل جلبوا الخمر من أوروبا لبيعها في تونس وبجاية^(٤) وتفنن النصارى واليهود في صناعة تلك الخمر على الرغم من السماح لهم وخاصة النصارى بتناول أطعمتهم وأشربتهم من شرب خمر وأكل لحم الخنزير وخاصة في عهد السلاطين الضعاف ونفوذ الوزراء، ولكن في عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم المخلصين الذين حثوا المحتسبين والقضاة على التضييق عليهم والحد من انتشار صناعة الخمر، فقاموا بتكسير قدورهم التي يعتق فيها الخمر وصهرها وتحويلها إلى نحاس وذلك بسبب بيعهم الخمر للمسلمين بقباس، وتعرضوا لمضايقات كبيرة من الوزراء ومساعدتهم من المحتسبين والقضاة في عهد قوة الدولة.

اتسمت عملية تصنيع الخمر الجيدة وبكميات كبيرة وخاصة في مدينة

(١) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٥٧

(٢) ابن دينار: المصدر السابق، ص

(٣) Franz , Rosenthal: the jewish foundation of Islam. new York , ١٩٦٧ , p. ١٥٢

(٤) Mas latire , op cit , p. ٢١٢

جيجل^(١) وكذلك صنع شراب العنب الطيب الطعم في مدينة الحامة^(٢) وكذلك صنعت الخمر الجيدة بمدينة نكاوس^(٣) بسبب كثرة زراعة العنب بها^(٤) وكذلك مدينة تونس^(٥) وذلك في غياب السلطة والوزراء وخاصة في فترات نفوذ الوزراء فغابت مراقبتهم، فزادت عملية تصنيع الخمر وانتشرت عملية بيعه وتداوله بصورة كبيرة في أنحاء إفريقية والمغرب الأقصى دون رادع أو مراقب، كل ذلك جعل رجال الدين يصدرون الفتاوى تحرم بيع الكروم للنصارى واليهود^(٦).

(١) مدينة جيجل: مدينة قديمة بينها وبين ميلة من أرض المغرب مرحلة وبين جيجل وبيجاية خمسون ميلاً، وهى مدينة صغيرة على ضفة البحر والبحر يحيط بها ويضرب سورها وهى كثيرة التفاح والفواكه، راجع الحميري: المصدر السابق، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) مجهول: الاستبصار، ص ١٢٨، ص ١٥٧.

(٣) نكاوس أو نقاوس: وهى مدينة صغيرة كثيرة الأنهار والثمار والمزارع تكثر فيها أشجار الجوز والعنب ومنها يحمل كل هذا إلى بيجاية وإلى أكثر تلك البلاد، راجع الحميري: المصدر السابق، ص ٥٧٩.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ص ٤٤٢، ٤٥٧، زينب كير: أهل الذمة في الدولة الحفصية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب - جامعة الزقازيق، ٢٠٠٥، ص ١٥٢.

(٥) التجانى: الرحلة، ص ٥.

(٦) الونشريسي: المعيار، ج ٦، ص ٦٩، ج ٥، ص ٢٥. البرزلي: جامع، ج ٣، ص ٢١٨-٢١٩، ٢٢٠-٢٢٢، رشا سالم، المرجع السابق، ص ٢٥١.

الدباغة^(*) وصناعة الجلود:

نتيجة لوفرة المواد الخام من الثروة الحيوانية بسبب انتشار المراعى الخضراء الواسعة بأفريقية، دخلت صناعة الجلود والدباغة ضمن أهم الصناعات في الدولة الحفصية، حيث تتم تزويد الحذائين والسراجين وغيرهم بما يحتاجونه لصناعة الأحذية والجلود للكتب والسروج، واهتموا بصناعة النعال للجنود المحاربين وشيوخ الأعراب والولاطين والعامة، والفائض من المواد الخام فإنه يصدر إلى المدن المجاورة^(١) وبلغت مدينة القيروان شهرة كبيرة بدبغ جلود الأغنام والماعز وجلودتها ورقتها وليونة جلدها وصفت بالحرير وصنع السكان منه ثياباً لهم، باعوها أيضاً للجنوب بكميات كبيرة^(٢) وخصص السلاطين الحفصيين الأقوياء ووزرائهم عدة أسواق ليتم فيها تهيئة الجلود، وأعدادها صناعياً وتسويقها، مثل سوق السراجين وسوق الخرازين، أما مجلدوا الكتب فلعلهم كانوا أقرب إلى سوق الكتبيين، كما ذكر سوق للبلايين

(*) الدباغة: من دبغ يدبغ دبغاً، صاحب العين؛ دبغته، دبغه، الاسم الدبغ والدباغ والمذبغة، والدباغة هي عملية تنظيف الجلود وتليينها بآله أو مادة ويتم نقع الجلد في الماء مدة طويلة، ويكون النقع في حوض يتكرر النقع عدة مرات، راجع ابن سيده (أبى الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى): المخصص، دار الفكر، (ج - ت)، م ١، ص ١٠٥، ابن الاثير (عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد)، اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت ١٩٨٠م، ج ١، ص ٤٠٨، إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادى، ص

(١) الدولاتلى، مدينة تونس، ص ٦٩

(٢) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٢٦

قرب ربيض باب الجديد^(١).

وكانت لمدينة قفصه شهرة كبيرة بدبغ الجلود ونقشها وزخرفتها^(٢) وبسبب رائحة دبغ الجلود الكريهة وأضرارها الصحية أمر السلاطين الأقوياء الحفصيون وزراءهم بنقل حوانيت صناعتها بعيداً عن وسط المدينة، وكانت مسلخ الجلود تبني على مخارج الأنهار في بلاد المغرب^(٣) ولكن مع تراجع قوة السلاطين وازدياد نفوذ الوزراء نجد انتصاب أسواق الدباغة داخل المدن وخاصة مدينة القيروان وذلك في أواسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي مما أدى إلى التراجع العمراني للمدينة وكثرت شكايات الناس^(٤) ونجد أنه في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين يحتكر القصابون تجار السلطة عملية الشراء والذبح دون غيرهم من الناس وكانت هذه العملية تتم أمام السلطة المركزية المشاركة لها، وبالعكس السلطان الضعيف والوزراء المتحكمون ومعهم القصابون في نهب البادية وأخذ الماشية وغيرها بثمن بخس أو سعر غير مرتفع^(٥) بل وصلت هذه الظاهرة أيضاً إلى مدينة تونس حيث انتقلت دور الدباغة من خارج أسوار المدينة إلى داخلها، وزاد معها

(١) الدولاتلي: مدينة تونس، ص ٦٩

(٢) الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٠٤

(٣) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ٢٨٠، ٤٤٦

(٤) البرزلي: فتاوى، ج ١، ص ١٨٠، حيث نجد أن شكايات الناس كانت تذهب هباء دون تنفيذ بسبب ارتباط الدباغ وعلاقته الشديدة بالوزراء وغيرهم من السلطة، راجع البرزلي: ج ١، ص ٤٨٦. حسن، المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٨٦.

(٥) البرزلي: فتاوى، ج ٥، ١٨ - ١٩ م، ج ١، ص ٤٨٦، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٨٥ - ٤٨٦.

الخراب في الداخل، وكثرت القاذورات حتى تصدى لها أحد المحتسين ونقل الغسالة خارج السور، وحاولوا الرجوع مرة أخرى ولكن لم يستطيعوا دخول المدينة مرة أخرى^(١) ومع ضعف السلاطين واستفحال نفوذ الوزراء افتقرت تلك الصنعة والصناعات القائمة عليها بسبب ثقل الجباية المفروضة عليهم، وأصابهم الفقر^(٢) وتدهورت معهم الحرف القائمة عليها مثل البلاغين.

الوزراء والصباغة:

الصباغة هي المرحلة الأخيرة لتهيئة المنسوجات وتعتمد على مواد نباتية وأخرى حيوانية وأيضاً مواد كيميائية^(٣) وعرف سكان أفريقية هذه المواد واستخدموها في صباغة المنسوجات^(٤) التي اعتمدت أيضاً على الحطب كوقود، فجعل الصباغون أماكن تواجدهم ومحلاتهم بالقرب من مخازن الحطب بباب الفلاق بمدينة تونس^(٥) وفي عهد قوة الدولة وسيطرة السلاطين على مقاليد الحكم، انتعشت صناعة صباغة المنسوجات حيث سيطر الوزراء

(١) البرزلي: فتاوى، ج، ص.

(٢) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٤٦٤، ٥١٥.

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٨١، عن المواد المستعملة في الصباغة راجع السيد طه أبو سدير، الحرف والصناعات، في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١، ص ٤٢، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٤٨٢، الونشريسي، المعيار، ج ٦، ص ٣١٤، عبد السلام بن سوده: حول أسماء الحرف الصناعية المعروفة في مدينة فاس، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٢١، السنة ١٤، يناير ١٩٧١، ص ١١٧. Mas latrie: les relations p ٢١٧

(٤) القلقشندی: صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٠٤.

(٥) ابن القنفذ: الفارسية، ص، التجاني: الرحلة، ص ١٤٢

ومعاونوهم على عملية الصباغة ومنعوا غشها، وبالتالي ظهرت معها مدن في إتقان الصناعات صباغة المنسوجات مثل مدينة توزر^(١) و مدينة الحمامات^(٢) ومدينة المرسى* التي كثر بها دور الصباغة حيث مياه الأنهار الجارية^(٣) حاجة هذه الصناعة إلى مياه دائمة^(٤) وحتى لا ينزعج السكان المجاورون للروائح الكريهة من عمليات الصباغة والتي كانت بعيدة عن السكان والأسواق^(٥) على العكس من ذلك فترات ضعف السلطة المركزية المتمثلة في السلطان وقوة نفوذ الوزراء وسيطرتهم على مقاليد الحكم، وغياب دور المحتسب عن الأسواق والرقابة على دور الصباغة فينتشر الغش والسرقة^(٦) بالإضافة إلى تقلبات السوق العالمي التي احتكرها فئات محدودة من اليهود والتجار الأوروبيين^(٧) فكثر الخلافات والادعاءات بين الصباغين وأصحاب الأثواب بسبب تميز أثوابهم وإعطائهم أثوابًا أخرى^(٨) في ظل غياب الرقابة تدهورت معها هذه الصناعة.

(١) النجاتي: الرحلة، ص ١٥٨

(٢) الحمامات:

(*) المرسى:

(٣) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٥٤ - ٤٥٥

(٤) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٤٩

(٥) برنشفيك: تاريخ إفريقيا، ج ٢، ص ٢٠٩

(٦) البرزلي: فتاوى، ج ٣، ص ٢٢٤، الشيرزى: نهاية الرتبة، ص ٧٢

(٧) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٨٣

(٨) الشيرزى: نهاية الرتبة، ص ٧٢

الوزراء وصناعة السفن:

كان للأحداث السياسية المغربية في البحر المتوسط والموقع الجغرافي عامة وسواحل تونس خاصة في العهد الحفصي دور هام لظهور الأسطول الحربى البحرى^(١) كما كان لاتساع وانكماش الدولة، ومساعدتها إلى غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس ضد النصارى أثره القاطع في عدد سفن الأسطول^(٢) لذلك اهتم سلاطين الدولة الحفصية الأقوياء ومساعدتهم وزرائهم في إنشاء دور الصناعة في المدن القريبة من الغابات مثل بجاية، وكان لقائد الأسطول أو صاحب البحر شخصية هامة عند السلطان الحفصي والجهاز المعاون له من الوزراء^(٣)، وذلك في فترات قوة ونفوذ السلطة الحاكمة المسيطرة على جماع الوزراء الحفصيين وجعلهم موضع تنفيذ لأوامر سلطانهم^(٤).

ويقول ابن خلدون في رتبة قائد البحر في إفريقية الحفصية مثل باقى مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وأفريقية ومروؤوسه يخضع إلى وزير الحرب وتحت حكمه في كثير من الأحداث^(٥) وكانت الدولة الحفصية في حاجة مستمرة وماسة وملحة للأسطول، فأنشأوا كثير من السفن من أجل

(١) هنرى برنشفيك: المرجع السابق، ص ٩٤

(٢) عز الدين عمر موسى: دراسات، ص ٤٧-٤٨، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٤٦

(٣) ابن خلدون: العبر، ص ٦، ج ١٢، ص، ابن القنفذ: الفارسية، ص

(٤) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٤٧

(٥) ابن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص ٦٥٤-٦٥٥

الدفاع عن السواحل الحفصية والحروب الخارجية^(١).

ولكننا نجد أحياناً أن وزير الحرب هو نفسه وزير البحر وكان هو قائداً للأسطول الحفصي عندما يسيطر الوزير على مقاليد الحكم حيث سعى الوزراء إلى جمع الأموال الوفيرة وذلك من جباية السفن^(٢) على العكس من فترات قوة السلاطين فكان قواد الأسطول هم المنفذون للأوامر السلاطين مثلما فعل السلطان أبو فارس عبد العزيز عندما أرسل الأسطول بقيادة قائد الأسطول رضوان وأمره بفتح جزيرة مالطة ولا يتجاوز في حربه لها ثلاثة أيام وإذا لم يستطع فتحها ير حل عنها^(٣).

وكذلك استخدام الأسطول الحفصي متحالفاً مع المرينين في عهد السلطان أبي بكر الحفصي، بقيادة زيد بن فرحون^(٤) الذي ذاع صيته في البحر، فطلبه

(١) الغنيمي: موسوعة المغرب، م ٣، ج ٥، ص ٢٨٦، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٥
(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص، صالح فياض: فنون القتال عند المرابطين والموحدين والحفصيين، مجلة المؤرخ العربي، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، العدد ٣، ١٩٨٨ م، ص ٢٤٦

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص ١٢٧

(٤) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ١٣، ص ٢٦١، السلاوي: الاستقصا، ج ٣، ص ١٣٥، عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي، ج ٧، ص ٨٣، الحريري، تاريخ المغرب والأندلس، ص ١١٥، المبروك غنية الأسطى: حركة الجهاد، على مدى قرن في ظل الصلات بين بني الأحمر بغرناطة وبني المرين بفاس، ٦٨٤ هـ - ٧٧٧ / ١٢٧٥ - ١٣٧٥ م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ١٩٩٥، ص ١٢٩، محمد شبانه: يوسف الأول، ص ١٣٣، صالح فياض: المرجع السابق، ص ٢٤٥، ضياء باشا: الأندلس الزاهية، ج، ص ١٧٨ - ١٧٩، عبد الفتاح مقلد: موسوعة المغرب، م ٣، ج ٥، ص ٢٣٨،

السلطان أبو الحسن المريني في إحدى المعارك الحربية ضد الجيش النصراني في أثناء الأخذ بثأر ابنه (أبي مالك) المقتول في حروب معهم عندما كان والياً من قبل ابنه على أحد الثغور الأندلسية^(١).

وتعددت مراكز الأساطيل الحفصية وزاد اهتمام الدولة بهذه المراكز في عهد السلاطين الأقوياء وكانت للمهدية أثر كبير في تقوية هذا الأسطول الحفصي وتنميته، بسبب موقعها البحري ونشاطها منذ زمن البيديين، وكذلك كانت بجايه وعنابه وغيرها من المراكز الهامة لقيام صناعة الأساطيل^(٢) والانطلاق منها ضد بعض الموانئ الغربية من أجل استرداد أو غزو الجزائر في

(١) العربي العمري: الزواج السياسي (توأمة فاس والقيروان) مجلة المغرب والأندلس، عدد ٣، الرباط، ١٩٦٥، ص ٤١ - ٤٣، ابن الخطيب: كناسة الدكان، ص ١٦٣، ابن خلدون: العبر، مج ٧، ج ١٣، ص، السلاوي: الاستقصا، ج ٣، ص ٨٣٥، المقریزی: السلوك، ج ٢، ج ٣، ص ٦٧٠، شبانة: يوسف الأول، ص ١٣٢، عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي، ج ٧، ص ٨٢ - ٨٣ / محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ج ٧، ص ١٢٧، سامية مسعد: الجهاد الإسلامي، ص ١٢٦، برنشفيك: تاريخ أفريقية، ج ٢، ص ٩٥، ابن الخطيب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن الهجري، تحقيق محمد كمال شبانة، مراجعة حسن محمود، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة د.ت، سامية مصطفى مسعد: الجهاد الإسلامي في الأندلس ودور المجاهدين من علماء ومتصوفة، الزهراء كمبيوتر سنتر، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٢٦. المقريري: تقى الدين أبو العباس أحمد، ابن علي المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦، ق ٢، ج ٣، ص ٦٧٠.

(٢) صالح فياض: المرجع السابق، ص ٢٤٥

سنة ١٢٧٦م^(١) في عهد السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر^(٢) ووزرائه منهم ابن أبي الحسين قوى الشكيمة على الهمة شديد المراقبة والحزم^(٣) وفي عهده قوة الدولة ووزرائها كان الجهاد في الأندلس لا يفتر ولا ينضب وكانت الأساطيل الإسلامية دائمة الإقلاع من أجل الجهاد^(٤) حيث أرسل السلطان أبو زكريا الحفصي الأسطول لتقديم المساعدات إلى المسلمين في الأندلس^(٥) ولكن مع ضعف السلاطين وسيطرة الوزراء ضعفت وتحلفت الأساطيل الحفصية في ظل تدهور أوضاع الدولة على جميع النواحي^(٦) وخاصة بعد وفاة السلطان أبي عمرو عثمان (٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ولم تعد السلطة تمتلك أى نفوذ على الأقاليم الداخلية بالإضافة إلى عدم توفير الأمن على سواحلها وموانئها بسبب ضعف الأسطول^(٧).

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٣، ص، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٥

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٧

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٢، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٢

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢، ص ٣١٣-٣٢١، السلاوي، الأستقصا، ج ٣، ص ١٣٤-١٣٧،

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ٦، ص ٦٠٤، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٦٢، ابن الشجاع: المصدر السابق، ص ٥٩.

(٦) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٥.

(٧) عبد الناصر جبار، المرجع السابق، ص ٢٣٣، مريم محمد عبد الله جبودة: التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحد والحفص، رسالة دكتوراه، آداب الزقازيق ٢٠٠٨م، ص ١٤٦.

الوزراء والصاغة:

عرفت أفريقية الحفصية فن الصاغة وصناعة الحلي، وعملت المصادر على تطور هذه الصناعة بأفريقية في حقبة ظل فيها الكثير من المدن الأوروبية مثل برشلونة تجهل هذه الحرفة^(١) وعمل اليهود بهذه الحرفة^(٢) وتواجدوا بكثرة في سوق الصاغة، وحتى في ضرب النقود^(٣) وكانت حرفة الصاغة من الحرف الشاقة لأنها تتطلب العمل والوقوف لفترات طويلة أمام النار^(٤) على العكس من المسلمين الذين كانوا يرفضون مثل هذه الحرفة^(٥) ونجد أنه في فترات سيطرة الوزراء وضعف السلاطين الحفصيين عمل اليهود على غشها وتزويرها، حيث أقبل الصاغة اليهود على خلط الذهب بالفضة أو تبديل الذهب بالفضة عند صهره^(٦) حيث غاب المجلس الوزراء عن رقابة الأسواق

(١) الأبي، الكامل، ج ٢، ص ١٣٢، البرزلي: فتاوى، ج، ص.

(٢) محمد سويسى: أنحاط العمران البشرى، ص ٩٧؛ محمد حجى: الزاوية الدلائية ودورها

الدينى والعلمى والسياسى، المطبعة الوطنية، الرباط، المغرب، ١٩٦٤م، ص ١٢١

(٣) برنشفيك: تاريخ أفريقيا، ج ١، ص ٤٤٢.

(٤) كان يقبل اليهود على المهن الصعبة والحقيرة والشاقة، عن أهم حرف اليهود راجع جواتبان:

دراسات في التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب عبد الله القوصى، وكالة

المطبوعات، ج ١١، الكويت، ١٩٨٠م، ص ١٦٨ - ١٦٩ / ابن الخطيب (لسان الدين):

مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، دراسات ووثائق. تحقيق عبد المجيد التركى، المؤسسة العربية

لكتاب بالجزائر، ١٩٨٧م، ص ٩٢.

(٥) روجيه لوتورنو: فاس في عصر بنى مرين، ترجمة نقولا زيادة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٧،

ص ١٣٩.

(٦) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٨٠، ابن يوسف: الدوحة المشتبكة، ص ٨٢، أبو شامة،

المرجع السابق، ص ٣٧٠، مارمول كربخال: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨

على العكس من فترات السلطان الأقوياء حيث التزم اليهود بحرفهم وعاداتهم وملا بسهم^(١).

كما تعددت صناعات أخرى مثل صناعة الورق والأحبار^(٢) وصناعة الشمع^(٣) وصناعة المنجنيق الذي صنع بدار الصناعة بتونس ورمى به ثلاثة أحجار في تونس في شهر صفر عام ٥٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م^(٤) في عهد السلطان أبي عصيدة ووزيره ابن أزرقان^(٥) وقامت صناعة المجوهرات والحلى^(٦) وصناعة الخزف والزجاج^(٧).

ومن المؤكد أن هذه الصناعات قد تدهورت في فترات نفوذ الوزراء وسيطرتهم على البلاد، وساءت أحوال البلاد فقامت الثورات في البلاد^(٨) ونشبت الخلافات بين الصناع وأرباب الأموال في جميع أنحاء البلاد^(٩).

(١) برنشفيك: تاريخ أفريقيا، ج ١، ص ٤٣٧

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات، ج ٢، ص ١٦٤، الغبريني: (أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني) عنوان الدراية فيمن عرف في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص ١٢٤ - ١٢٥

(٣) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٢٦

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ٥٨

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧١٠ - ٧١١، الزركشى، المصدر السابق، ص ٥٠

- ٥١، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٧

(٦) منى سيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ١١٤

(٧) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٥٦

(٨) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٥٦

(٩) الونشريسى: المعيار، ج ٨، ص ٢٢١

وخلاصة القول أن الصناعات ازدهرت في عهد السلاطين الأقوياء، حيث كان الوزراء وزراء تنفيذ، وكذلك سيطرت السلطة على البلاد وتوفير الأمن والقضاء على الفتن والثورات، فعم الازدهار جميع الصناعات، على العكس من سيطرة الوزراء على السلاطين والافراد بالقرارات، وكان شغلهم الشاغل جمع الأموال بشتى الطرق فأهملوا البلاد وانحدرت معها الصناعات، وانعدم الأمن في الطرقات وانتشار الخوف والخراب الذى دب في جميع البلاد، وانتشر الثورات التى أثرت على اقتصاد الدولة الحفصية.

دور الوزارة فى التجارة:

شهدت بلاد أفريقية نشاطاً تجارياً^(١) ملحوظاً أثناء الحكم الحفصى بسبب موقعها الجغرافى المتميز على سواحل البحر المتوسط، مما أتاح لها السيطرة على بعض الطرق التجارية لأنها تقع بين الساحل والصحراء، ولا تنفصل سواحلها عن شاطئ البحر، ولذلك كانت الموانئ الأفريقية نقطة التقاء بين المشرق والمغرب وبين التجارة والمتوسطية وقوافل التجارة الصحراوية وتعتبر التجارة بشقيها الداخلى والخارجية إحدى الركائز الأساسية للنمو الاقتصادى وازدهار الحياة الاجتماعية فى أفريقية، وهى تقوم على فائض الإنتاج سواء زراعى أو صناعى.

(١) عرف العرب التجارة قبل الإسلام ثم استمر المسلمون فى العمل بالتجارة فى ظل الدين الإسلامى واتساع الدولة الإسلامية، فعظمت التجارة وازدهرت، راجع جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، مطبعة الهلال، ط٤، القاهرة ١٩٢٧، ج٥، ص ٤٠-٤١، أبوزيد شلبي: تاريخ الحضارة والفكر الإسلامى، مكتبة وهبة، ط٦، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٠٩-

التجارة الداخلية:

لقد أعطى السلاطين الحفصيون الأقوياء ووزرائهم اهتماماً كبيراً بالتجارة ولذلك عملوا على تأمين الطرق التجارية بين المدن وبعضها البعض وخاصة الطريق الساحلي^(٢) وظل الطريق منتعشاً اقتصادياً خلال فترة الحكم الحفصي وهذا ما يصوره لنا ابن بطوطة خلال سنتي ٥١٠هـ - ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م^(٣) في عهد السلطان أبي يحيى ابن بكر الحفصي^(٤) مشيراً إلى ما بذلته السلطنة ووزرائها من جهود من أجل زرع حياة الأمن والاستقرار في هذا الطريق^(٥) ولعبت الأسواق* دوراً هاماً في جميع المدائن الإسلامية كمركز للحياة الاقتصادية لأنها تحتوي على النشاط الصناعي والتجاري مما ينعكس على الحياة الاجتماعية للمجتمع الحفصي^(٦).

(٢) الطريق الساحلي: يبدأ هذا الطريق من طرابلس مشرقاً حتى يستمر غرباً بعدة مدن صغيرة على الساحل مثل "جنزور، زواره، جرجيس، قابس" حتى جربة، راجع: المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٨٣، الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٧٩-٢٨٠، عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص ٣٠٥، راجع صالح بيعزق: المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٠

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ج ٢،

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ٦٦-٦٧، ابن الشباع: الأدلة،

(٥) ابن بطوطة: الرحلة، ج ٢، ص

* تنوعت الأسواق الحفصية ما بين أسواق الأسبوعية في أيام معينة من الأسبوع وكانت هذه الأسواق ذات أهمية كبيرة في الاقتصاد الحفصي، راجع: برنشفيك، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٥، الوزان: المصدر السابق، ص، المقديسي: أحسن التقاسيم، مكتبة مدبولي - القاهرة،

١٩٩١م ص ٢٢٥

(٦) منى سيد عبدالعزيز: المرجع السابق، ص ١١٧

واهتم السلاطين الحفصيون الأوائل الأقوياء ووزرائهم بتنشيط الحياة الاقتصادية داخل الأسواق في المدن الأفريقية، وكانت تونس هي صاحبة الاهتمام الأكبر من قبل السلاطين والوزراء باعتبارها عاصمة الدولة ومركزاً للحياة الاقتصادية وكانت تعقد في تونس ثلاثة أسواق في أماكن مختلفة كل أسبوع وكان البدو يتوافدون عليها حاملين معهم بضائع البادية والريف^(١) وانتشرت هذه الأسواق وازدهرت في عصر السلاطين الأقوياء ووزرائهم حيث وجدت أسواق أسبوعية في جزيرة جربة^(٢) وإقليم طرابلس^(٣) وسوق صفاقس يوم الجمعة^(٤) وكانت قسطنطينة^(٥) وكذلك بجاية كان بها سوق الخميس والاثني^(٦).

وقد راعى السلاطين الأقوياء ووزرائهم ومساعدوهم عملية تنظيم الأسواق مما يوفر سهولة التموين للجهة واحترام متطلبات حفظ الصحة والقطاع المعماري بالمدينة من جهة أخرى وبالتالي انتظمت الأسواق الخاصة بالمواد الاستهلاكية العادية وبيع الأقمشة أو الثياب الجاهزة ومواد الترف

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٥١٠

(٢) الوزان: المصدر السابق

(٣) التجاني: الرحلة ص ٢١٥-٢١٦

(٤) الصفاقسي: نزهة الأنظار، ص ٣٢

(٥) كان يقصدها كثير من العرب والبربر باشيتهم بشراء ما يلزم من احتياجات وبيع الزائد

عنهم، راجع الوزان، المصدر السابق، ص ٣٦٧-٤٧٦

(٦) مريم محمد عبدالله جبوده: التجارة في بلاد أفريقية وطرابلس الغرب خلال العهد بين

الموحدى والحفصي، رسالة دكتوراه آدب الزقازيق من ٢٠٠٨، ص ١٧٨

قرب السباط الأعظم الواصل إلى جامع البلد^(٧) واستمر اهتمام السلاطين العظماء ووزرائهم المخلصين بالأسواق والتجارة الداخلية فأمر السلطان ابو يحيى اللحياني وزرائه عام ١٧١١هـ/ ١٣١١م بتسهيل عملية إنشاء دكاكين العطارين حتى وصل عددهم إلى ٧٠٠ حانوت وانتعشت التجارة في عهد هذا السلطان ووزرائه^(٨) ولكن في نهاية عصره دخل به العمر واضطربت أحوال البلاد وانتشرت الفتن والثورات وسيطر الأعراب على الثروات وكذلك الوزراء على السلطان فلم يجد طريقة إلا الهروب بعد أن جمع الأموال وباع جميع الذخائر التي كانت في القصة، وجمع قناطير الذهب التي تجاوزت العشرين وحولتين^(٩) وبالتالي تدهورت معه حركة التجارة الداخلية بالتأكد لانعدام الأمن والصراع على الحكم وسيطرة الوزراء على مقاليد السلطة بسبب فشل السلطان السياسي^(١٠) وظلت هذه المدن وأسواقها وحركة التجارة بها مزدهرة زراعياً وتجارياً وصناعياً في عهد السلاطين الأقوياء إلا أنه عندما انحطت الدولة وتدهورت في عهد نفوذ الوزراء حيث الحروب والثورات فتخربت المدن وانهارت معها الزراعة والتجارة والصناعة، حيث سيطر الأعراب على الأراضي وجميع ما فيها وعاثوا فيها الخراب، وكانت هذه الأسواق تختص بنوع معين من السلع فهناك أسواق للغزل وأخرى للزيت

(٧) محمد سويسي: أنباط العمران، ص ٨٩، مرجع: مريم جبوده، المرجع السابق، ص ١٧٨

(٨) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ص ١٢٠، برنشفيك، المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٠

(٩) الزركشي: المصدر السابق، ص ٦٣-٦٤

(١٠) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٠

وأخرى للدقيق^(١) وكان لا يسمح ببيع أى سلعة خارج سوقها، حتى لا يصاب تجار الحوانيت داخل الأسواق بالخسارة لكساد سلعهم^(٢) وعرفت الأسواق الحفصية نظام الوسطاء الذين عرفوا باسم الدالين^(٣) وكانوا يعملون سماسرة^(٤) ولم تكن هذه الحرفة قاصرة على الرجال فقط بل مارسها النساء، وتمكن السلاطين الأقوياء ووزرائهم في عهد قوة الدولة من السيطرة على أسعار السلع داخل الأسواق، فكانت الأسعار رخيصة بوجه عام، وبلغت مداها في أيام الرخاء، حيث يفيض الإنتاج عن حاجة المستهلكين بسبب كثرة الإنتاج ووفرته، فكان متوسط سعر القفيز من القمح يساوى خمسين درهماً، وكان الشعير أقل من ذلك، وكانت أسعار اللحوم رخيصة جداً، حيث بلغ سعر لحم الضأن الدرهم رطل الواحد، وأنواع اللحوم الأخرى أقل من ذلك بكثير ودرهمين ثمن للدجاجة^(٥) وهذا يدل على مدى سيطرة السلاطين الحفصيين على مقاليد الأمور وكان الوزراء مجرد وزراء تنفيذ وكان السلطان أبو عمرو عثمان خير دليل على ذلك حيث قبض على زمام

(١) الونشريسي: المعيار، ج ١٠، ص ٢٤٢، كمال أبو مصطفى: جوانب من حياة المغرب، ص ٧٠

(٢) الونشريسي: المعيار، ج ٩، ص ٧٢، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٦

(٣) الدلال: بفتح الدال واللام مشددتين والجمع ولا لون وهو الذى يدل عن السلعة ويزينها ليغرى المشتريين وإغراء البائع فكان دور الوسيط بين البائع والمشتري وكان له مكسب من إتمام عملية البيع راجع محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، ج ١١، القاهرة ١٩٩٣م

(٤) السمسار: كان مهمة السمسار البيع لمن يريد البيع ويشتري لمن يريد الشراء راجع ابن رحال: كشف الصناع، ص ١٠١

(٥) العمري: وصف أفريقية، ص ٦، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ١١٥

الدولة بيد قوية، وصرف شئونها بحكمة فازدهرت معها التجارة الداخلية، وبلغت مداها^(٦) مثلما فعل من قبله السلطان الحفصي أبو زكرياء الحفصي حيث بلغ الرخاء أشدة وانتعشت التجارة ومعها انتعشت خزانة الدولة بالأموال^(٧)، وفي عهد قوة الدولة والوزراء المنفذين لسياسة سلاطينهم، ووعى تنظيم هذه الأسواق^(٨) بسبب قوة المحتسب^(٩) لأنه هو المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية عامة في المدينة والحياة التجارية والصناعية على وجه الخصوص^(١٠) ولكن هذه الوظيفة تطورت في أواخر العصر الوسيط، حيث تحول النفوذ في مسائل

(٦) يوسف فهمي الجزائري: المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٧) الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، ج ٢، ص ١٠.

(٨) محمد سويبي: المرجع السابق، ص ٨٩.

(٩) المحتسب: كان المحتسب لا بد أن يكون عارفاً بأحكام الشرع ليدعم ما يأمر به أو ينه عنه، وكان المحتسب في بلاد المغرب يتولى وظيفته وولايته من قبل السلطان فكان ليفعل في النزاعات بين أصحاب المهن والحرف والصناعات، وتحديد الاسعار ومراقبة المبيعات ويحمي المستهلكين من الغش والتدليس، راجع: الشبرزي: نهاية الرتبة، ص ٦، محمود إسماعيل: الإقطاع في العالم الاسلامي ومن منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجري بين الجدل النظري والواقع التاريخي ضمن حوليات كلية الآداب الصادرة عن مجلس النشر العلمي: الحولية الحادية عشر، الرسالة التاسعة والستون، جامعة الكويت، ١٩٨٩-١٩٩٠، ص ١٧، محمد المنوني: خطة الحياة في المغرب، مجلة المناهل تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية، العدد ١٤، السنة السادسة، المغرب، ١٩٧٩، ص ٢١٠، الحسن السائح، على هامش القرويين، ص ٩٩، المنوني: أبحاث مختارة: منشورات وزارة الشئون الثقافية، المغرب، فبراير ٢٠٠٠م، ص ١٨٤، إبراهيم القادري بوتشيش: الأسواق في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط تنظيياتها ومعطياتها الاجتماعية (تراث الغرب الإسلامي)، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٠١.

(١٠) مريم جبودة: المرجع السابق، ص ١٨٤.

الحسبة إلى قاضى الجماعة، وهذا ما فعله ابن عرفه سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م^(١) فى عهد السلطان أبى إسحاق أبى يحيى أبى بكر سنة ٧٥١ هـ - ١٣٥٠ م / ٧٧٠ هـ - ١٣١٩ م^(٢) واقتصر دور المحتسب على ردع الحرفيين عند غشهم، أو عدم بيع البضاعة للناس وحل المنازعات^(٣) وظلت خطة الحسبة والمحتسب فى تدهور وانحطاط^(٤) فى فترات ضعف السلاطين ونفوذ الوزراء وتدهورت معها أحوال الأسواق، فعمت الفوضى ووقت المشاكل على السلع بين الدلال والتاجر^(٥)، وفى غياب السلطان القوى وأمام نفوذ الوزراء غاب سلطة المحتسب ووقعت خلافات كثيرة بين أصحاب الحوانيت والدلالين، حيث أراد أصحاب الحوانيت منع الدلالين من البيع فى النهار ووسطه، معين أن الدلالين يسببون لهم أضراراً، لأن المشتري يقلب السلعة فى حوانيتهم بهدف الشراء، فيرى أن سلعة المنادى أقل ثمناً من الحوانيت فيشتري من الدلال بدلاً من الحوانيت^(٦) وظهرت مشكلات أصحاب السلع مع السماسرة فكان يأخذ السلعة ويدعى تلقاها منه^(٧) وأثناء فترات سيطرة الوزراء ونفوذهم كسدت التجارة الداخلية بسبب الحروب والحصارات الكثيرة التى تعرضت لها

(٢) محمد محسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٥١١.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ص ١٢، ص، الزركشي: المصدر السابق، ص، ابن القنفذ: الفارسية، ص.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٥١٣.

(٥) المرجع السابق، نفس الجزء والصفة.

(٦) الوثنريسي: المعيار، ج ٥، ص ٢٠٢.

(٧) الوثنريسي: المعيار، ج ٥، ص ١٩٧.

(٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٨، ٣١١، ج ٩، ص ١٢١.

المدن^(١) حيث أدت هذه القلاقل والفتن إلى فساد وتوقف حركة الطرق التجارية^(٢) وكذلك كان للقبائل العربية دورها في تدهور التجارة^(٣) بسبب تدهور الزراعة والصناعة، كما قطع الأعراب الكثير من الطرق التجارية حيث كانوا قوافل التجارة ويقطعون الطرق على قصور الصحراء^(٤) ومع السلاطين ونفوذ الوزراء كان للطبيعة دورها أيضًا في كساد حركة التجارة والأسواق، حيث دمرت السيول والثلوج والمجاعات والطاعون^(٥) وأوبئة التجارة والطرق التجارية والأسواق والعاملين في هذا المجال^(٦) ففسدت الأخلاق وأصبح التعامل مع الجزائريين صعبًا^(٧) وقاموا ببيع اللحم في البادية جزافًا، ولا يعرفون كثيرًا من الأحيان معرفة مقدار ما يبيعه^(٨) وهو ما يعرف بالبيع الجزاف^(٩) وتزايد غش

(١) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(٢) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٥٩.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج، ص.

(٤) مصطفى أبو ضيف: أثر العرب في تاريخ المغرب، ص ٢٢٦.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج ١٠، ص ٦٣٦، ٤٣٧، ص ٢٠٥، إبراهيم القادري: الإسلام السري:

ص ١٨٧، سامية سعد، الحرب والطبيعة، ص ٢٨.

Lopez reports. Medieval trade in the mediterranean world, oxford university, Press, London, ١٩٩٥, P. ٥٢.

(٦) إبراهيم القادري: الإسلام السري، ص ١٨٧.

(٧) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٢٣٠.

(٨) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٨٩، ٩٦.

(٩) البيع الجزاف: هو البيع بالنظر وليس بالوزن والمكيال ولقد نهى الرسول (ﷺ) عن بيع

الجزاف، راجع ابن رشيد المقيد: بداية المجتهد ونهاية المقتصر، تعليق ومراجعة عبد الحليم

محمد عبد الحليم، وورد الكتب الإسلامية، ص ٢١، ١٩٨٣، م، ج ٢، ص ١٧٧.

التجار للبضائع والسلع^(١) ولا يعرف المشتري عيوب السلعة إلى بعد شرائها^(٢) وارتفعت الأسعار نتيجة للاحتكار^(٣) وهذا يدل على ما وصلت إليه الأوضاع الاقتصادية من انهيار^(٤) وكان لكثرة الرسوم والضرائب والمغارم في فترة نفوذ الوزراء التي كان شغلهم الشاغل جمع الأموال والذخائر بشتى الطرق، على الكساء التجارى خاصة والاقتصادى الحفصى عامة، وكان لتحديد نسب الرسوم والضرائب، فقدرت الدولة جميع التغيرات التي يمكن أن تطرأ على الأسعار وقيمة العملة ذهباً وفضة بالإضافة إلى احتياجها تمويل الحروب والصراعات، ومظاهر الملك، كما أن ارتفاع الأسعار يستفيد منه السلطة الحاكمة المتمثلة في السلطان الضعيف والوزير المستبد وذوى النفوذ وكبار التجار، بينما يقع العبء على كاهل العامة من ذوى الدخل المحدود^(٥) وفي القرن الثامن الهجرى في فترات نفوذ الوزراء اشتكى الناس من ضرر اليهود وكثرت تعاملهم بالنقود والحلى المغشوشة وبيعها دون أن يكون عليها طابع السكة^(٦) حتى يتهربوا من حقوق دار السكة وسميت هذه النقود «بالنقود الخارجة» أى المتداولة خارج دار السكة^(٧) وبدأ الذمة وخاصة اليهود

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٢٠٤، رشا سالم: المرجع السابق، ٢٦٦.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج ٦، ص ٤٢٥.

(٣) الونشريسي: المعيار، ج ٦، ص ٤٢٥.

(٤) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٥٩، عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص ٣٤٦، زينب كرير: المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٥) ابن يوسف: المصدر السابق، ص ١٣٧-١٣٨.

(٦) الونشريسي: المعيار، ج ١٠، ص ٤٠٩.

(٧) يوزياتى الدراجي: نظم الحكم في دولة بنى عبد الود الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية،

في تسليف التجار المسلمين الأموال^(١) وكانت هذه الديون على التجار المسلمين هدفها مدايتهم حتى يتم بالاتفاق فجعلت التجار المسلمين تحت سيطرة اليهود وأدى ذلك في تحكم اليهود في الأسواق واشتد البلاء على التجار، فظهرت فئة من العوام لحراسة القوافل التجارية كمهنة لهم.

خلاصة القول:

كان لضعف السلاطين الحفصيين ونفوذ الوزراء أثر في غياب دور المحتسب وانهيار الأسواق، وكانت لكثرة الصراعات والدسائس من أجل السلطة أثرها في انهيار التجارة وكسدها وسوء حال التجار وزيادة نفوذ التجار اليهود وفي ظل غياب واضح وصريح من السلطة الحفصية.

الوزراء والتجارة الخارجية:

بلغت الدولة الحفصية مكانة عظيمة من التقدم في عهد السلاطين الأقوياء وقامت بعلاقات تجارية واسعة مع الدول المجاورة لها، وذلك بحكم موقعها الجغرافي المتميز^(٢) وشهدت التجارة الخارجية تطوراً كبيراً فازدهرت التجارة الحفصية مع الدول الأوروبية في حوض البحر المتوسط الغربي، وأصبحت هذه الدول تخاطب السلاطين الحفصيين ووزراءهم^(٣) وساعد على ذلك وجود شبكة جيدة من طرق التجارة البحرية والبرية^(٤) واستقرار الأحوال السياسية

الجزائر، ١٩٩٣، ص ٢١٤.

(١) إبراهيم القادري: الإسلام السري، ص ٢١٩، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٢) منى سيد: المرجع السابق، ص ١٣١.

(٣) مريم جبودة: المرجع السابق، ص ٨٣.

(٤) كانت الطرق البحرية من بلاد أفريقيا والأندلس تقلع من تونس وطبرقة وبونة وتنس

للدولة الحفصية في عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم المخلصين في تنفيذ هذه السياسات حيث أمنوا الطرق ونشروا الأمن وحرصوا على إقامة اتفاقيات تجارية مع النصارى مثل أرجوان وصقلية^(١) وفي عهد السلطان أبى زكرياء الأول القوى المسيطر على أمور دولته، وبمساعدة وزرائه له، فقد عقدت اتفاقيات تجارية مع البندقية في أكتوبر ١٢٣١م^(٢) وبيزة في أواخر

ودهران اتجاه موانئ الأندلس ثم أحياناً إلى سبتة، وطرق بحرية أخرى تربط بين المرافئ الأوربية وأفريقيا، وطرق بحرية إلى بلاد المغرب المجاورة من تلمسان والمغرب الأقصى وطرق برية شالية جنوبية تربط أفريقيا بالسودان، وطرق برية شرقية وغربية تصل أفريقيا بأقطار الشرق من جهة والأندلس والمغرب من جهة أخرى، راجع: الاصطخري: مسالك الممالك، ت/ محمد جبر عبد العال: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٣٣-٣٤ ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٦٥-٧٩، مجهول الاستبصار، ص ١٦١، وليفيا كونيستل: التجارة في الأندلس، تعريب/ فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، ج ١، ٢٠٠٢م، ص ٧٣-٧٤-٧٥، جورج مارسية: بلاد المغرب وعلاقتها مع المشرق في العصر الوسيط، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل: منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٩١م، ص ٣٢٨. (٢) الونشريسي: المعيار، ج ٨، ص ٢٠٨، الطاهر محمد توات: أدب الرسائل في الغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، قسم اللغة العربية وآدابها، ص ٢٦١-٢٦٦، مريم جبودة: المرجع السابق، ص ٨٣، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٦٨.

Mas Latrue: op.cit., ١٩١ Thompson: Economic and Social History of the Middle Ages. Vol. ١ page ٤٤٨.

(٣) منى سيد: المرجع السابق، ص ١٣٢ (البندقية تسمى فينيسيا، وقد نشأت على جزيرة رياتو أكبر جزر البندقية (Rialto) وإليها جاءت قبيلة فينيت (Venet) التي أخلت الانقسام الشمالية الشرقية من إيطاليا في التاريخ الروماني المبكر وأطلق عليها اسم فينيسيا في القرن ١٣م على مجموعة جزر اللاجئيين في تلك الجهات، راجع عبد القادر أحمد اليوسف والعصور

١٢٣٤^(١) وجنوة في ١٠ يونيو ١٢٣٦^(٢) ونصت هذه المعاهدات على زيادة أصحاب التيار التجارى وضمان الأمن واستقرار النصارى في دار الإسلام، ووقع أبو زكرياء ووزرائه اتفاقية مع فردريك الثانى كانت أشبه ما يكون بعلاقة المنتصر والمهزوم، حيث توجت بأن يدفع أبو زكرياء الحفصى لفردريك ضريبة تقدر بثلاثة آلاف قطعة ذهبية^(٣) وهذه الاتفاقية كانت تهدف إلى حماية موانئ إفريقية من القرصنة، بالإضافة إلى خوفه من هجوم تلك المدن على تونس والحرب ضده، وكان إنزال بحرب الثوار والخارجين عليه.

وفي عهد أبو زكرياء الحفصى ووزرائه ازدهرت التجارة الخارجية مع المدن النصرانية ازدهاراً ملحوظاً ومثمراً وكانت لحركة التجارة في كل من تونس وبجاية أشد كثافة من نفس الحركة في الجمهوريات الإيطالية التجارية^(٤) فارتبطوا بعلاقات ممتازة مع جاره فردريك الثانى صاحب صقلية^(٥) وكذلك أقام أبو زكرياء علاقات متينة مع خايم الغازى ملك أراجون حينما استقبل الوزراء الحفصيون سفير أراجون في تونس من أجل توطيد هذه العلاقة

الوسطى الأوروبية ٥٧٤٦ هـ / ١٣٢٢.

(Dara: Histoire de venise, braxelles, ١٨٤٠, part ١, P.P. ٥ ١٣٢.

المطوي: السلطة ص ١٥٦. ٨٣. Mas Latri, oput,

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٦، المطوي: P. ١٥٦. Amari: d' plomi

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٦. ٢٣/١١٧/١٦. Mas latri: op.cit.,

(١) المطوي: السلطنة، ص ١٥٧ عن هذه الاتفاقية راجع برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٥٧.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٦٤. ٦٤. Mas. Latrie, op.cit.,

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٧. Mas Latri, op.cit, P.

السليمة في ميخاره^(١) وكذلك استقبل السلطان أبو زكريا ووزرائه في ٢٠ إبريل ١٢٣١ سفارة مرسلينا، وعقدوا معاهدة تجارية بين البلدين^(٢) واستمرت العلاقات التجارية مع الدول المسيحية في عهد السلطان المستنصر ووزرائه، فقام بتجديد معظم المعاهدات، ووقع عدة معاهدات أخرى في وجود وزرائه أو ما ينوب عنهم ممثلي عدة دول أوروبية^(٣)، فأرسلت كل من جنوة والبندقية سفيراً إلى تونس لإعادة السلم وكانت المعاهدة الأولى في ١٨ أكتوبر ١٢٥١ لمدة عشر سنوات بواسطة المبعوث الجنوي غليوم شيبو (Guilellima Cibo) والثانية في أول إبريل ١٢٥١ لمدة أربعين سنة بواسطة (Philip Guiellani) فيليب جيولياني^(٤) وأرسلت بيزا السفير بارونت فيقسونتي Parent visconnti إلى تونس عام ٦٦٣ هـ ١٢٦٤ م، وعقدت عهد مع السلطان الحفصي المستنصر ووزرائه، وأقر بالتمسك بجميع الامتيازات القديمة، وحرية التجار^(٥).

وعندما أعتلى شارل دانجو Charles danjou عرش صقلية ٦٦٥ هـ، ١٢٢٦ م اعتبر ملك تونس المستنصر الحفصي نفسه غير مرتبطاً بأية واجبات أو عهود موقعة مسبقاً، مثل دفع الرسوم على الموارد الذي كانت تؤدي سنوياً إلى بلاد بالرمو Palermo، ونشبت اعتداءات بين سفن السلطان الحفصي وسفن

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٦٤.

(٢) Mas Latri, op.cit., ٨٢.

(٣) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ١٣٤/١٢٧، P. Mas latri, op.cit.,

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٧٣. ١٢٧، P. Mas latrie: op.cit.,

(٥) Mas latrie: op.cit., P. ١٣٦.

كونت بروفنسا وامتنع السلطان الحفصي عن دفع الأتاوه المستحقة لصقليه^(١). وأمر السلطان المستنصر الحفصي وزراءه بضرورة إرسال سفارتين إلى مدينة جنوا، كانت السفارة الأولى عام ٦٤٩هـ / ١٢٥٠م، والسفارة الثانية عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢م، كما أرسل سفارتين إلى مدينة البندقية، السفارة الأولى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥١م، وأرسل إليها السفارة الثانية عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م، وكانت مدينة بيزا مثل سابقتها فأرسلت إلى تونس سفارة يقودها بارنت فسكنتى وأبرم مع الوزير أبى الحسين معاهدة في ١٤ شوال عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م^(٢)، وأعطى للفرويين الذين كانوا تحت حماية أهل بيزا في مدينة أفريقية حق التجارة والتعامل مستقلين عن مدينة بيزا، وأصبحت عملة الفلوريين التي سكت عام ١٢٥٣م من الذهب الخالص متداولة في أفريقية.

وفي عهد السلطان المستنصر سارع المسيحيون من أجل تجديد تلك المعاهدات بعد رحيل الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا من أجل انتشار الرعايا المسيحيين من أجواء الحروب المشوبة بالخوف والحذر في جميع بلاد أفريقية، وعملوا على إعادة العلاقات بين الحفصيين والأوروبيين، فوافق السلطان ووزرائه على الفور^(٣) وظلت العلاقات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية وبنى حفص مستمرة طوال الثلاثين عامًا الأخيرة من القرن الثالث عشر الميلادي التي أعقبت هذه الحملة الصليبية^(٤).

(١) Jamil Aban Nasr. Op. cit. p. ١٢١

(٢) Maslatrie. Op. cit. p. ٩١٥ , Dufourq, op. cit. p. ١٠٩

(٣) Jamil Abun Nasr, op. cit. p. ١٢١, Maslatrie, op. cit. p. ٩١

(٤) Jamil Aban Nasr, op. cit. p. ١٢١

وعندما توفي المستنصر عام ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م^(١) وفي عهد السلطان الواصل (-) ووزرائه الغالبين على أمره أمثال ابن الجبر المستبد عليه^(٢) وكذلك سعيد بن أبي الحسين وزير المالية^(٣). وأصبح ابن الجبر هو المتصرف الحقيقي في شئون الإدارة العليا، وجمع بين الوزارتين الإنشاء والمالية بعد أن تخلص من منافسة ابن أبي الحسين، وبلغ الوزير ابن الجبر في حجرة على السلطان فأطلق على لقب المتصرف في المعاهدة المبرمة مع ميورقة في يوليو ١٢٧٨م، فوقع على المعاهدة بنفسه^(٤) وفي مقر إقامة سفير ملك ميورقة خايم الأول^(*) وكانت معاهدة هذا الوزير مع ميورقة في التجارة بالدولة الحفصية^(٥)

(١) يذكر mas.latrie أن وفاة المستنصر كانت في عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م، على العكس من الزركشي فبذكرة بعام ٦٧٥هـ وهو التاريخ الصحيح للوفاة لأنه كان معاصرًا للأحداث ويؤكد ذلك ابن خلدون، راجع الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٠، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص

(٢) ابن خلدون العبر، مج ٦، ج ١٢، ص

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٨، ابن القنفذ، الفارسية، ص، المطوى: السلطنة، ص ٢٣٢، ٢٣٣، ابن الشاع: المصدر السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٥، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٤ - ١٠٥. ❖ خايم الأول (jayme) هو خايم أراجون ولقب بالفاتح وبأ عهده بسياسة الأسترداد ومدن بلنسية وشاطبة وأشتهر بنشاطه التجارى مع دول حوض البحر المتوسط، راجع: محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس (تاريخ العرب المنتصرين)، ج ١١، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩٨ - ٩٩، محمد محمود النشار: علاقة مملكة قستالة وأراجون بسلطنة الممالك، ج ١١، ١٩٩٠، prieto: polica aragonesa enafrica hasta la muerta de fernando et

catolico. Madrid , ١٩٥٢ , p. ٤٩ - ٥٠

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٧

وفي عهد السلطان الحفصي أبي حفص عمر ٦٨٣ هـ - ٦٩٤ هـ / ١٢٨٤ م - ١٢٩٣ م حدثت بعض المتاعب والمضايقات لبعض التجار الجنوبيين على السواحل الأفريقية وقد قدمت حكومة جنوه شكاوى للسلطة الحفصية المتمثلة في الوزير أبي زيد عيسى الفازازي الذي رفعها إلى السلطان الحفصي^(١) الذي نظر في الشكاوى ثم عقد اجتماع رسمي حضره وزرائه بعض وقناصل الدول في مدينة عام ١٢٨٧ م الذي تضمن بعض القواعد الجديدة للعلاقات بين الحفصيين وجنوه^(٢) واستمرت العلاقات التجارية بين الحفصيين والبنديقية حيث عقد السلطان الحفصي أبو عصيدة (٦٩٣ هـ - ٧٠٩ هـ / ١٢٩٤ م - ١٣٠٩ م) في حضور وزرائه معاهدة تجارية جديدة عام ١٣٠٥ م مدتها عشر سنوات^(٣) وكان للوزير الأكبر أبي يحيى اللحياني دور كبير في هذه المعاهدة لأنه كان ممثلاً للسلطان أبي عصيدة^(٤).

وكانت كل هذه الامتيازات التي جعل عليها البنادقة والجنوبيين وباقي الممالك الأوربية في تونس الحفصية يعبر عن مدى ما وصلت إليه الدولة الحفصية من ضعف وتدهور وانحيار بسبب ضعف السلاطين وتحكم الوزراء ورجال السلطة في مقاليد الحكم، مما أدى إلى تدهور الحركة (العملية) التجارية مع هذه الممالك، ووهنت السلطة المركزية للسلطة الحفصية لدرجة

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص، برشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٣

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٣، ١٢٧ - ١٢٥ p. mas latrie

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٨، مريم جودة: المرجع السابق، ص ١٤٠

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ص ١٤٨، ١٥٨ p. mas, latrie. opcet

أنها عجزت عن التصدي للأخطار المهددة كيائها، فلم تحرك ساكناً^(١) وعقد وزراء السلطان أبى زكريا اللحياني معاهدة تجارية جديدة عام ٧١٣هـ / ١٣١٣م مدتها عشر سنوات وذلك من أجل ضمان المصالح التجارية للطرفين من أمور البيع والشراء والاداءات الجمركية والإقامة^(٢) وحضر وزراء أبى زكريا اللحياني أثناء هروبه المعاهدة بين سفير البندقية والسلطان أبى ضربة عام ٧١٧هـ / ١٣١٧م، وذلك يتفقد الأمانة بتونس وذلك من أجل تجديد معاهدة ١٣٠٥م^(٣) وهنا لابد من وجود حضور الوزراء لمثل هذه المعاهدات سواء كان الوزير الأكبر أو وزير الإنشاء من حضور وكتابة المعاهدة.

واستمرت العلاقات بين تونس الحفصية والدول الأوروبية حتى في عهد السيطرة المرينية^(٤) حتى استطاعت الدولة الحفصية من السيادة على أراضيها واعتلى السلطان الحفصى العرش الحفصى وهزمه وطرد المرينين^(٥) فأرسلت بيزا خطاباً إلى السلطان الحفصى غيرت من مشاعرهم الطيبة تجاهه فرد السلطان الحفصى أبو إسحاق بن يحيى أبى بكر ٧٥١هـ - ٧٧١هـ / ١٣٥٠م - ١٣٦٩م، عليهم برسالة طمأنهم فيها على أحوال البيزنين وأن الحكومة الحفصية من سلطان ووزراء جادين في حماية ورعاية رعاياهم، وتسهيل

(١) المطوى: السلطنة، ص ٢٧٩

(٢) Michele amari, opcit pp. ٨٦- ٩٧، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٤

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٤، Mas latrie: op cit. p.

(٤) Michele amari: op cit p. ٣٠٩- ٣١٢، مريم جبودة: المرجع السابق، ص ١٤١

(٥) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٨٣

أمورهم وأحوالهم بالعدل^(١) وهنا لا ننكر دور وزراء الإنشاء للسلطان أبي إسحاق يحيى في عملية تبادل الرسائل^(٢) وعندما سيطر الوزير ابن تافراجين على مقاليد الحكم تمامًا^(٣) أقام معاهدات وعلاقات تجارية مع بيزا وارجوانه، وأبرم بتونس معاهدة سارية المفعول لمدة عشر سنوات في ١١ ربيع الثاني ٧٥٤هـ / ١٦ مايو ١٣٥٣م، باسم السلطان أبي إسحاق مع سفير بيزا وينيير بورشليني^(٤) وكانت هذه المعاهدة توضح وتستعيد بعض المسائل المتعلقة بالعمليات والرسوم الجمركية، ولم تتوطد العلاقات الحفصية الأرجوانية إلا بعد فشل الغزو المريني نهائيًا^(٥) وفي ٢٤ صفر ٧٦١هـ / ١٥ جانص ١٣٦٠م أبرمت معاهدة لمدة عشر سنوات مسيحية بين الوزير ابن تافراجين وبين سفير بيدرو ملك أرجونة، وكان هناك بندان مميّزان في هذه المعاهدة وهما حق هجوم الأرجوانيين على السفن القشتالية في سواحل إفريقية وحتى في ميناء تونس واحتجاز من فيها من مؤن وأشخاص، والبند الثاني هو تسديد تونس لملك أراجون طوال مدة المعاهدة ضريبة سنوية قدرها ألف ديلون تضمنها نصف الأداءات الجمركية المدفوعة في جميع الموانئ التونسية^(٦) وقبلت تونس الممثلة في الوزير القوى ابن تافراجين دفع هذه الضريبة وأرسل الوزير ابن تافراجين

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٢، مريم جبوده: المرجع السابق، ص ١٤١

(٢) العبادي: دراسات، ص ١٨٨

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٨٢٩، المطوى: السلطنة، ص ٤٣٦

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٢،

Amari: op. cit. pp ٩٨ - ١١٤ / Mas latrerie. Op. cit. pp ٥٥ - ٥٦

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٢

(٦) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٢- ٢١٣

وفدًا إلى بيدرو محملاً برسالة احتجاج معتدلة اللهجة^(١).

ومع تولى السلطان أبى العباس أحمد الحكم الحفصى، تقدمت عملية الخضوع للمعاهدات الأوروبية، حيث سعت جنوه لعمل معاهدات مع السلطان الحفصى في ١٦ أوت ١٣٨٨ بحضور وزراء السلطان الحفصى والسفير الجنوى لو كافلو^(٢) كما كانت سياسة السلطان الحفصى ووزرائه قاسية مع الدولة الأوروبية، وكان من الصعب على هذه الدول في التعامل مع السلطان بسبب نشاط المجاهدين المسلمين في البحر المتوسط ضد القرصنة الأوروبية التي لم ترق لتلك الدول فقامت باستعراض قواها على السواحل الأفريقية الحفصية، وشاركت فرنسا وجنوة وبيزا في هذه الحرب والمهمات التي باءت بالفشل بسبب الخلافات بين الدول الأوروبية وحرب المناوشات من جانب الجيش الحفصى^(٣) ومع ذلك استمرت التجارة والتجار الأوروبيون في السواحل الحفصية من أجل إنعاش عملية التجارة بسبب قوة السلطان الحفصى ووزرائه المعاونين له في إدارة شئون البلاد^(٤).

واستمرت الجمهوريات الإيطالية تقدر السلطة الحفصية في عهد السلطان أبى العباس أحمد وحتى السلطان أبى عمرو عثمان من بعده، حيث لجأت بيزا للتعامل مع السلطان الجديد القوى ووزرائه المحالفين له، وبالفعل تمت

(١) المرجع السابق: نفس الجزء، ص ٢١٣

(٢) ١٣٠ - Mas latrerie: op. cit. p. المرجع السابق: نفس الجزء، ص ٢٢٩

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٠ - ٣٣٤

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٨٨٦، الزركشى: المصدر السابق، ص ١٠٦، أبين

القنفذ: الفارسية، ص ١٧٨، المطوى: السلطنة، ص ٤٨٣

معاهدة صلح بين السلطان الحفصي أبى فارس ومعه وزرائه طرف أول والطرف الثانى كان مندوب بيزا فى ٢٣ ربيع أول ٨٠٠ هـ / ١٤ ديسمبر ١٣٩٧ م، وتعلقت هذه المعاهدة بتسوية جميع المسائل المتعلقة بممارسة التجارة والأحوال المالية للطرفين^(١) ولكن عندما هاجمت ثلاث سفن جنوية على أربع سفن تونسية بالقرب من سواحل صقلية أسرع جنوه إلى تقديم اعتذاراتها إلى السلطان الحفصى أبى فارس ووزرائه الذين شجعوه على حجز البضائع الجنوية الموجودة بتونس وذلك من باب الاقتناص^(٢).

كما جددت البندقية معاهدتها عام ١٣٩١ م فى عام ١٤٠١ م مع السلطان أبى فارس ووزرائه من أجل التجارة والتجار بين الدولتين^(٣) وجرت مفاوضات بين حاكم صقلية مارتى الأصغر وبين السلطان الحفصى أبى فارس ووزرائه إلا أن تلك المفاوضات تعطلت بسبب موت حاكم صقلية فجأة وحدوث مشكلات على الحكم^(٤) ثم بدأت بعدها محاولات صقلية للسيطرة على جزيرة جربة والساحل التونسى ولكنها فشلت واتخذت سياسة معادية ضد الحفصيين، ولكن ذلك لم تخدم العلاقات التجارة بين الطرفين، فحاول تحقيق علاقاتهم معهم، فجرت عدة مفاوضات من عام (١٤٣٨ م - ١٤٥٦ م) من أجل حماية التجارة والتجار بين البلدين ولكنها تعثرت بسبب ازدياد أعمال

(١) ٨٧ - ٧٠، Mas latrie: op. cit. pp. ١٣٥ - ١٢٣، Amari: Dplomi.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٣٤٨

(٣) المرجع السابق: نفس الجذر، ص ٢٤٩

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ص ٢٥٦

القراصنة حتى لاقت قبولاً من السلطة الحفصية^(١) التي تتمثل في السلطان ووزرائه وتمت معاهدة تجارية أخرى بين جنوه والسلطة الحفصية المتمثلة في الوزير الحفصي أبى هلال وذلك في ٤ صفر ٨٤٨هـ / ٢٣ مايو ١٤٤٤م من أجل تحديد مسؤولية أصحاب السفن الجنوبيين المؤجرة إلى الرعايا الحفصيين وأعطت جنوه هذه المعاهدة أيضاً تشجيع كبير للتجارة الجنوبية في إفريقية^(٢) واستمرت العلاقات الطيبة بين البلدين حتى عام ١٤٤٨م و ١٤٤٩م حيث تعددت شكاوى الجنوبيين ضد السلطة الحفصية بسبب عرقلة عمل قنصل الجمهورية بتونس وفقاً لعمليات القرصنة البحرية^(٣).

ولم تكن فلورانس أقل من جنوه في علاقاتها بالدولة الحفصية حيث أرسلت مبعوثها بالديناشو ابن أنطوتويدى إبرى لتأكيد الصلح وتم إبرام معاهدة صلح بتونس مع كبير الوزراء ابن أبى هلال في منتصف محرم ٨٤٩هـ / ٢٠ إبريل ١٤٤٥م^(٤) وكانت أهم بنود تلك المعاهدة التي وقعها كبير الوزراء الحفصي أبو هلال هي ضبط مدة المعاهدة بإحدى وثلاثين سنة شمسية، على تحديد الأداء الجمركى العادى الموظف من قبل السلطة الحفصية على البضائع المستوردة بنسبة ١٠,٥٪ وبند آخر ينص على فرض أداء على القيمة قدره نص٪ على رعايا فلورانس الراغبين في بيع السفن إلى النصارى

(١) الطيبى: المرجع السابق، ص ٩٣

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٣ - ٢٨٤

(٣) المرجع السابق: نفس الجزء، ص ٢٨٤

(٤) ٣٦٠ - ٣٥٤ pp. cit op. Mas - latire: * ١٨٠ - ١٦٩ pp. cit op. Amari: برنشفيك:

المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٣

الآخرين في الموانئ الحفصية وذلك لفائدة الإدارة الحفصية^(١).

وبعد وفاة آخر سلاطين بنى حفص العظام ووزرائه المخلصين له ولدولته اضطرب الوضع الداخلى للبلاد وانتشرت الثورات التى أثرت بالفعل على العلاقات التجارية مع الدول الأوروبية ولكنها ظلت مستمرة من الناحية الشكلية ولكنها تأثرت من الناحية العملية، حيث حرصت جنوه ونابولى على استمرار عقد المعاهدات مع وزراء السلاطين الضعاف المتآمرين على السلطة حتى انتهت الدولة الحفصية عندما استولى الأسبان ثم استيلاء الأتراك على تونس بعد القبض على محمد بن الحسن الحفصى وإرساله به إلى اسطنبول خشية هروبه والاستعانة بالأسبان^(٢) وكانت أهم المعاهدات التجارية تعمل تأمين عملية التبادل التجارى بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية وكانت أهم صادرات الدولة الحفصية إلى أوروبا تتمثل فى المواد الخام كالصوف والجلود والقمح والزيت والفواكه والمرجان والملح والسجاد والفخار والسلاسل والحصار المصنوع من الحلفا وبعض الأقمشة^(٣) والزيتون وزيتته^(٤) والقمح^(٥).

وصدرت تونس الحفصية إلى المدن الإيطالية وفرنسا الصوف الخام

(١) MAS – latire op cit , pp ٧٦ , ٣٤٨

(٢) ابن أبى دينار: المؤنس، ص، ابن أبى الصناف: المصدر السابق، ص

(٣) الدولاتيلي: مدينة تونس، ص ٧٥، كان البنادقة هم محتكرى شراء الملح من طرابلس وجربه

وصدره إلى جنوه وباقى أوروبا، راجع التجانى: الرحلة، ص ٢٠٦-٢٠٧، MAS

latrie: op cit , p ٢١٨

(٤) البكرى: المغرب، ص ٢٠، مجهول: الأستنصار، ص ١١٦-١١٧

(٥) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ٤٣٣

والأقمشة الكتانية والصوفية^(١) والمرجان أيضًا صدرته تونس الحفصية إلى أوروبا لعمل الحلى والمجوهرات^(٢)، كما صدرت تونس العبيد والذهب إلى صقلية^(٣) وكان لأهالي تونس دورهم في تصدير توابل الشرق^(٤) وحريره ومصنوعاته^(٥) كما صدرّ التجار التونسيون الماشية إلى جنوه^(٦) كما صدرت تونس الحفصية إلى الجمهوريات الإيطالية لحاء يسمى " لحاء بجاية " يحتوى على نسبة من الأحماض استفدت منها هذه الجمهوريات في صناعة الدباغة^(٧) وكان التمر من صادرات تونس إل بيزا والبندقية وجنوه بالإضافة إلى العسل والشمع^(٨) وأيضاً صدرت تونس أسماك التونة والأسماك المجففة^(٩) وكذلك صدرت العاج^(١٠).

وكانت أهم الواردات الحديد والقصدير^(١١) وجميع أنواع التوابل من

(١) سلفاتورى بوتو: المرجع السابق، ص ٣٢٦، ٢١٦، MAS – latrie: op cit , عز الدين

أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص ٣٢٧

(٢) الوزان: المصدر السابق، ص ٤٣٣

(٣) الطيبى: دراسات، ص ٨٣، ٢١٥، MAS – latrie: op cit ,

(٤) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامى، ص ٦٤

(٥) ارشبالد: القوى البحرية والتجارية في حرب المتوسط، ص ٢٠٢، مريم جبود: التجارة في

بلاد إفريقيا، ص ١٤٧

(٦) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، ص ٣٢٧

(٧) سلفاتورى بونو: المرجع السابق، ص ٢٢٧، ٢١٧، MAS – latrie: op cit ,

(٨) MAS – latrie: op cit , p ٢١٨

(٩) MAS – latrie: op cit , p ٢١٦

(١٠) سلفاتورى بونو: المرجع نفسه، ص ٣٢٧

(١١) نجاة باشا: المرجع السابق، ص ٦٦

الفلفل وجوز الطيب^(١) واستوردت تونس أنواعاً مختلفة من الجوخ والحرير والدمس والكتان والتيل الناعم والخشن المسمى "الفوتروكن" أو المخزوني من بيزا وجنوه والبندقية^(٢) واستوردت تونس الحفصية السيوف من بيزا^(٣) وكذلك القطن والكتان^(٤) واستوردت تونس الحفصية من جنوب إيطاليا الاخشاب الخام والمنشور^(٥) وكذلك مواد الطلاء من البندقية وجنوة وبيزا^(٦) واستوردت اخشاب الصنوبر من البندقية من اجل تصنيع وتصليح السفن^(٧) ثم استوردت تونس الحفصية المعادن النفيسة والنقود من الذهب والفضة والسبائك سواء للأعمال الخاصة بالصناعة او بمراكز العملة المنتشرة في تونس وبجاية وطرابلس، وقد وافق ملوك تونس على تخفيض نصف الرسوم العادية على كل ١٠٪ على هذه الواردات والاعفاء الكامل عن المعادن التي كانت تشتري للعادات الخاصة أو بمراكز العملة^(٨) وكذلك استوردت تونس الحفصية الزجاج والخرز من البندقية^(٩) واستوردت العطور والعقاقير

(١) نعيم زكي: طرق التجارة / ص ٢٠٥ هامش

(٢) نعيم زكي: المرجع السابق، ص ٢٠٥، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ٢، ص ٥٠٢، MAS – latrîe: op cit , p ٢١١

(٣) الزهرى: المصدر السابق، ص ٧٨، مريم جوده: المرجع السابق، ص ١٤٨: إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج ٢، ص ٨٤، MAS – latrîe: op cit , p ٢١٠

(٤) الزهرى: المصدر السابق، ص ٧٨

(٥) سلفاتورى يونو: المرجع السابق، ص ٦٦

(٦) MAS – latrîe: op cit , p ٢١٠

(٧) نجاة باشا: المرجع السابق، ص ٦٦

(٨) MAS – latrîe: op cit , p ٢١٠

(٩) MAS – latrîe: op cit , p ٢١٤

الطبية^(١) والمواد المساعدة في الصباغة. والتبييض^(٢) والأوانى المعدنية والخردوات^(٣).

وحرص السلاطين الحفصيون ووزرائهم على استيراد القمح الصقل^(٤) وكذلك استوردت تونس في حالة ضعف السلاطين ونفوذ الوزراء كميات كبيرة من الخمور^(٥) التي انتشر متناولها في فترات ضعف الدولة وغياب دور المحتسب لسيطرة الوزراء على أمور الدولة وفي فترات ضعف السلاطين الحفصيين وزيادة نفوذ الوزراء وسيطرة التجار الايطاليين والبيازون على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط^(٦) مما سبب إضرارا بالغة بالتجارة المغربية والتونسية، مما دفع الحفصيون إلى عمليات الجهاد البحري "القرصنة"^(٧) من أجل حماية تجارتها ومقاومة الهيمنة الأوروبية على عملية التجارة^(٨) بل اشتدت

(١) MAS – latrerie: op cit , p ٢١٢

(٢) MAS – latrerie: op cit , p ٢١٢

(٣) MAS – latrerie: op cit , p ٢١٠

(٤) MAS – latrerie: op cit , p ٢١٢

(٥) ابراهيم حركات: العرب عبر التاريخ، ج ٢، ص ٤٨

(٦) مجموعة مؤرخون: العرب واللام في النهضة الأوروبية، مقال بعنوان، المعارف الملاحة

العالمية في القرون الوسطى واثرها في عصر النهضة: رشا سالم: المرجع السابق ص ٢٧٠

(٧) كانت المعاهدات التي تعقد بين ملوك تونس ووزرائهم وملوك النصرى تشير دائما إلى

القضاء على القرصنة والالتزام بملاحقتها وجمعها، وتقديم المساعدات والعون وحماية السلع

والسفن

رابع: سلفاتورى بونو: العلاقات التجارية، ص ٣٢٥

(٨) امين توفيق الطيبى: دراسات، ص ١٣٠، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٧٠م

ممارسة النصارى لعملية القرصنة ضد مراكب التجار الحفصيين مما أدى إلى تعرض هؤلاء التجار للموت، وإن نجا أحد منهم فإنه تعرض لضائقة مالية ومسائلة قانونية، وخاصة إذا كان يشترك مع آخرين في البضائع والمراكب الغريقة أو المسلوقة^(١).

ومع تدهور الأحوال السياسية للدولة الحفصية وما ينتج عن ضعف السلاطين ونفوذ الوزراء تدهورت أحوال التجارة الخارجية مع الدول الأوروبية مع سيطرة العرب على طرق التجارة الداخلية^(٢) كما كسدت التجارة الخارجية بسبب كثرة الرسوم والضرائب على السلع المستوردة، فكان المستفيد الأول من تلك العملية هي أصحاب النفوذ من الوزراء ومعاونيهم من كبار التجار، بينما وقعت الأعباء والزيادات على كاهل المواطنين من ذوى الدخل المحدود^(٣).

العلاقات التجارية بين الدول الحفصية والمرينيين:

لم يقتصر اهتمام السلاطين الحفصيين ووزرائهم على العلاقات مع الدول الأوروبية فقط بل اهتموا بالعلاقات التجارية مع المغرب الأقصى والأوسط وصدرت الدولة الحفصية إلى المغرب المريني التمور والفستق والعطور والأحجار الكريمة^(٤) ولعبت الدولة الحفصية دور الوسيط التجاري، حيث

(١) الوثننشى: المعيار، ج ٨، ص ٣٠

(٢) عبد الله العروى: تاريخ المغرب محاولة فى التركب، ترجمة دوقان قرقوط، المؤسسة العربية

للدراسات والنشر ج ١ بروت ١٩٧٧، ص ٢٣٨

(٣) عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٣٤٦

(٤) العمرى: المصدر السابق، ص، عمر سعيدان، علائق الحفصيين ببلاط أراغون، ص ١٦

كانت تصدر إلى بلاد المغرب الأقصى الكثير من السلع الواردة عليها من المشرق وأهمها المنسوجات الحريرية، والدمش، والبردى، والتوابل، والقطن، والعاج وريش النعام، والعطور^(١) وبينما استوردت الدولة الحفصية من المغرب الميرنى السكر، والعنبر، والصابون المغربى، وبعض أنواع العطور والقمح والورق والمصوغات الذهبية والفضية وغيرها من الصناعات^(٢) وعندما ضعفت الدولة الحفصية في فترات القوة المرينية والغزوات المرينية ونفوذ الوزراء الحفصيين الذين لعبوا دورًا هامًا مثل أبى تافراجين وغيرهما من الوزراء المستبدين^(٣) والحروب بين السلطان أبى الحسن الميرنى والقبائل العربية والجيش الحفصى في أراضى الدولة الحفصية^(٤) تأثرت التجارة بين الدولتين وتدهورت حياة التجار وانقطعت الطرق التجارية بين الدولتين، حيث خاف التجار والأفراد على أموالهم وتجارتهم في مثل هذه الظروف الصعبة^(٥).

(١) مارمول كربخال: إفريقية، ج ٣، ص ١٢٤، عمر سعيدان: علائق الحفصيين، ص ١٥ -

MAS - latrerie: op cit , p ٣٦٨ , ٣٨٢، ١٦

(٢) عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص ٤٠٥ - ٤٠٦

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص، الكيفى الزرهونى: الملعبه، ص ١٩، الأنصارى:

فهرست الرصاع، ص ٢٠ هامش، المطوى: السلطنة، ص ٣٩١ - ٣٩٣

(٤) يحيى بن خلدون: الغية الرواد، ج ١، ص ١٩، ٢٣٥، ابن أبى دينار: المؤنس، ص ١٦٩، ابن

رضوان: الشهب اللامعة، ص ١٥، الكيفى الزرهونى: الملعبه، ص ٢٠، مقديش: المصدر

السابق، ج ١، ص ٥٢٧، ٥٢٦، السلاوى: الاستقصا، ج ٣، ص ١٦٢، جوليان: تاريخ أفريقيا

الشبالية، ص ٨٤

(٥) عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص ٤٠٦

العلاقات التجارية بين الحفصيين وبنى عبد الواد:-

ارتبطت الدولة الحفصية بجارتها الزيانية بعلاقات تجارية وثيقة بسبب تداخل الحدود فيما بينهما من الناحية السياسية والعسكرية والجغرافية^(١) فصدرت البلاد الحفصية التمور والفسق والعطور والأحجار الكريمة إلى دول بنى عبد الواد^(٢) كما صدرت الدولة الحفصية إلى الدول الزيانية الملح، والأسماك المملحة، والشمع، والمرجان، والصابون، والحديد، والزيت^(٣) كما صدرت الدولة الحفصية السلع المشرقية إلى بنى عبد الواد بالمغرب الأوسط^(٤) واستوردت الدولة الحفصية التين، والكتان، والقمح، والشعير، العديد من المصنوعات الزيانية، وأنواع عديدة من الحبوب^(٥) وكان التجار الحفصيون حرصين على الحضور إلى سوق تلمسان ببضائعهم لأنه كان يعتبر من أهم الأسواق في إفريقية^(٦) حيث حرص السلاطين الحفصيون ووزرائهم في حالة قوة الدولة على توفير الأمن والأمان على الطرق التجارية المؤدية إلى دولة بنى

(١) محمد القبلي: الدولة والولاية، ص ٤٣؛ مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، ١٩٨٧، ص ٢٠٧، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٥٦ - ٥٧، محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٤٠٤

(٣) عمر سعيدان، علائق الحفصيين، ص ١٦، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٤٠٤

(٤) مارمول: إفريقية، ج ٣، ص ١٢٤، عمر سعيدان: علائق الحفصيين، ص ١٥ - ١٦،

MAS - latrerie: op cit , p ٣٦٨

(٥) مختار حساني: تاريخ الدولة الزيانية دار الحضارة، الجزائر ٢٠٠٧، ج ٢، ص ١٤٥ - ١٤٦ وصفحات متفرقة.

(٦) نجاة باشا: المرجع السابق، ص ٥٤، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٣٣٥،

الإدريسي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٨، مجهول: إفريقية، ورقة ٢٦ أ

عبد الواد^(١) كما أثرت الحروب بين الدولتين على عملية التجارة بينهما^(٢) ومع ضعف قوة السلاطين الحفصيين وزيادة نفوذ الوزراء ووصلت حالة الوهن إلى البلاد وسيطرت القبائل على الدولة وتدخلت في الحياة السياسية^(٣) فظهر الأشرار وقطاع الطرق وعمت الفوضى والاضطرابات وانهارت وتدهورت معها التجارة بين الدولتين^(٤).

العلاقات التجارية بين الحفصيين ومصر:-

ارتبطت الدولة الحفصية بعلاقات تجارية نشطة مع مصر، حيث حرص التجار الحفصيون من جميع البلاد الحفصية للتجار مع مصر لقرب الحدود بين البلدين^(٥) حيث حرص السلاطين الحفصيون الأقوياء ووزرائهم على توثيق علاقاتهم مع سلاطين المماليك في مصر، حيث أمر السلطان الحفصي أبو العباس أحمد المسيطر على أمور دولته ووزرائه، حيث أرسل إلى الظاهر برقوق خمسة من الجياد الرائعة التي انتقاها له السلطان الحفصي من جياده الخاصة بناءً على طلب السلطان المملوكي الظاهر برقوق^(٦).

(١) مارمول كربخال: إفريقية، ج ٣، ص ١٣٧

(٢) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧، السلاوي: الأستقصا، ج ٣، ص ٧٩ -

٨٠، عبد القادر بو طبل: تاريخ مدينة أبو حمو، ص ٢٣

(٣) محمد سعيد: القبائل الهلالية والسليمية وعلاقاتها بالدولة الحفصية: رسالة ماجستير غير منشورة. كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس، عام ١٩٨٧، ص ٩٢

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ١، ج ١٢، ص ٧٢: مجهول، ذكر قضية المهاجرين، ورقة ٧ أ

(٥) الوزان: وصف إفريقية، ص ٤٥٦، ٤٦٥، ٤٦٦

(٦) ابن خلدون: رحلته شرقاً وغرباً، ص ٣٤٠، ٣٤٥

وكانت القوافل التجارية تخرج من مدن إفريقية الحفصية الموازية للساحل متجهة نحو الشرق إلى طرابلس ثم إلى قصور مسراته ثم برقه ولقية ثم إلى الإسكندرية^(١) وحمل التجار الحفصيون على قوافلهم ومعهم زيت الزيتون، واللوز، والفسق، من قفصه وتونس^(٢) وكذلك العمائم والادرية والطبالس والطواقى والملابس الصوفية^(٣) والزبيب^(٤) وكذلك صدر العسل والصوف الخام من طرابلس^(٥) وصدرت البلاد الحفصية إلى مصر الرقيق المجلوب من بلاد السودان أو من عمليات القرصنة للسفن الأوروبية^(٦) حيث ظهر الرقيق الأبيض بكثرة في مدينة بجاية^(٧) وكانت السفن والقوافل الحفصية تعود من مصر محملة بالتوابل بأنواعها من فلفل وجوز الطيب والقرنفل والرواتو والقرفة والزنجبيل وجوز الطيب، والأقمشة الكتانية الناعمة ومختلف المنسوجات المنقوشة والمذهبة^(٨) حتى وجدت بمصر سوق تسمى سوق المغاربة^(٩) ونجد أن العمليات التجارية تزدهر مع مصر في عهد السلاطين

(١) ابن سعيد: بسطة الأرض، ص ٨٠، ٨١.

(٢) مجهول: الاستبصار، ص ١١٦، ١١٧، ١٥٣، ١٥٤، الوزان، وصف إفريقية، ص ٤٥٠.

(٣) مجهول: الاستبصار، ص ١٥٤، ١٥٩، ١٧٠، ابن سعيد، بسطة الأرض، ص ٦١، أبو الفدا،

تقويم البلدان، ص ١٥٠، الفلقشندى، صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٠٨.

(٤) الوزان: وصف إفريقية، ص ٤٦٦، ٤٦٧.

(٥) الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٣١.

(٦) الترهجاني: تحفة الأريب، ص ١٣، نقولا زيادة، الرحالة العرب، ص ١٩٩.

(٧) الغبريني: عنوان الدراية، ص ٢٣، ٢٤.

(٨) نعيم زكى: طرق التجارة، ص ٢٤٨.

(٩) سامية مصطفى سعد: الأثر الثقافى للأندلسيين والمغاربة على علماء الصعيد الأعلى في مصر

في العصور الوسطى، ص ١٧.

الأقوياء من حيث السيطرة على القبائل والضرب على أيدي المفسدين على العكس من فترات سيطرة الوزراء على السلطة حيث ينعدم الأمن والأمان ويتشتر الخوف فيقبل التجار عدم الخروج بتجارهم.

العلاقات التجارية بين الحفصيين وبلاد السودان الغربى:

حرص السلاطين الحفصيون ووزرائهم على إقامة علاقات تجارية مع بلاد البرنو من أجل المحافظة على مكاسبهم من التجارة معهم، لذلك عمل السلاطين الأقوياء على دعمها وتعزيزها، وحرص السلاطين الحفصيون على عدم التدخل في شئون الحكم الداخلية أثناء حروبهم الداخلية، حيث اتخذوا موقفاً محايداً، مما جعل ملك الكانم من مساعدة السلطان المستنصر الحفصى في القبض على ابن قراقوش الثائر على السلطان الحفصى بعد هروبه مع أنصاره إلى بلاد السودان فأمر السلطان الكانمى بقتله هو وصاحبه^(١) وأكد ملك الكانام على تعزيزه للعلاقات بين البلدين، حيث أرسل عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م هدية إلى سلطان تونس المستنصر الحفصى، وكانت الهدية عبارة عن زرافة أثارت إعجاب وحيرة العامة لأنها كانت حيواناً جديداً عليهم^(٢) وفي عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم المنفذين لأوامرهم ازدهرت حركة التجارة الحفصية أيضاً حيث حمل التجار الهدايا إلى سلطان البرنو حتى يسمح لهم بحرية الإقامة والتنقل في بلاده، حيث كان أهل البرنو يستقبلون التجار بالترحاب والحفاوة وفي عهد السلاطين الأقوياء وكان الوزراء مركز تنفيذ، انتعشت التجارة مع

(١) التجانى: الرحلة، ص ١١١.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٦، أبى القنفذ، الفارسية، ص ١٢٠، ابن خلدون: العبر،

مج ٦، ج ١٢، ص ٤١٢، إبراهيم طرخان: امبراطورية البرنو، ص ١٧٤.

مدينة تمبكت أحدى المراكز التجارية المزدهرة، التى تقع على الطريق الذى يبدأ من طرابلس الحفصية ثم إلى أوجلا ثم إلى مدينة جاوة ومنها إلى تمبكت أو عن طريق آخر يبدأ من واحة الجريد إلى غدامس ومنها إلى تنست^(١).

ولعب التجار الحفصيون دورًا عظيمًا فى عملية نقل البضائع والسلع من موانئ تونس إلى بلاد جنوب الصحراء^(٢) حيث نقلت القوافل الحفصية إلى بلاد السودان الثياب الجميلة الفاخرة، والاستياء التحية التى يحتاج إليها أهل السودان الغربى من البرنو والكائم^(٣) وكانت الكتب أهم السلع التجارية التى لاقت رواجًا فى بلاد السودان الغربى وكانت أسعارها غالية^(٤) وحمل التجار التونسيون الأقمشة الصوفية والكتانية والزجاج والآلات المصنعة والأسلحة والعمائم والأكسية^(٥) وحمل التجار الحفصيون معهم الأقمشة والبضائع الأوروبية إلى تلك البلاد وخاصة فى فترات سيطرة السلاطين على أمور الحكم وعلى وزرائهم^(٦) وحمل التجار من السودان الغربى الرقيق التى كثر الطلب عليهم^(٧) وكانت أسعارهم رخيصة عندهم وبالتالى كثر الرقيق فى البلاد الحفصية مثل طرابلس

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ١١٩، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٦،

أحمد شلبى، الموسوعة الإسلامية، ج ٦، ص ١٩٧.

(٢) السعدى: تاريخ السودان، نشر هوداس باريس، ١٩٦٤، ص ٢٩٣.

(٣) ابن سعيد: بسطة الأرض، ص ٢٨.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ص ٥٤١، الشيخ الأمين عوض الله: العلاقات التجارية، ص

١٥١.

(٥) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٦) صلاح العقاد: المغرب العربى، ص ٥١.

(٧) ابن سعيد: بسطة الأرض، ص ٢٤، ٦٠، الدولاتلى: مدينة تونس، ص ٧٣.

وتونس وبجاية، وكذلك جلب العاج إلى تونس الحفصية لأنه كان في بلاد السودان الغربى أرخص وبكميات كبيرة وجلب التجار الصمغ وريش النعام والأنيوس^(١).

وخلاصة القول ارتبطت الدولة الحفصية بعلاقات تجارية عظيمة مع الدول المجاورة لها وخاصة في عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم المنفذين لأوامرهم على العكس من فترات نفوذ الوزراء حيث انعدم الأمن والأمان من أجل البلاد فخاف التجار على مصالحهم وتجارهم التي تعرضت لعمليات السلب والنهب من جانب الأعراب والقوى المعادية للسلطة.

(١) نعيم قداح: إفريقية في ظل الإسلام، ص ١٢٦، أحمد شلبي: الموسوعة الإسلامية، ج ٦، ص

١٩٧، إبراهيم طرخان، امبراطورية البرنو، ص ١٦٥